رواية

الجزيرة البيضاء



يوسف أبو رية

الجزيرة البيضاء

روايــة

يوسف أبو رية

المؤلف

- يوسف أبو ريه.
- مواليد، يناير ١٩٥٥ – مدينة ههيا – محافظة الشرقية.
- قضى كل مراحل التعليم في مدينته، ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٩٧٣ عقب حرب أكتوبر مباشرة ليدرس الصحافة بكلية الإعلام – جامعة القاهرة.
- وأنهى تعليمه الجامعي عام ١٩٧٧.
- عمل محرراً أدبياً في العديد من المجلات والجرائد القومية والمعارضة، ولكنه هجر الصحافة ليتفرغ للكتابة الأدبية.
- حصل على منحة التفرغ من المجلس الأعلى للثقافة لمدة ثلاث سنوات لينجز عملين روائيين ومجموعة قصصية ورواية للأطفال.
- ترجمت قصصه إلى الإنجليزية منذ عام ١٩٧٩ ضمن مختارات القصة العربية **Arabic short stories** التي قام بترجمتها لدار كوارتيت بوكس المستشرق

الإنجليزي دينس جونسون ديفز ثم ترجمت أعماله مرتين إلى اللغة الألمانية، الأولى ضمن مختارات القصة المصرية القصيرة التي قامت بترجمتها المستشرقة الألمانية دوريس كيلاس عام ١٩٨٩.

- والمرة الثانية قام بها المستشرق السويسري هارتموت فيندرتش عام ١٩٩١.
- سجل الباحث الأردني زياد أبو لبن رسالة ماجستير عن مجمل أعماله القصصية، صدرت في عمان عام ١٩٩٥ تحت عنوان (الأطفال في قصص يوسف أبو ريه).

صدر للمؤلف

- صدرت له حتى الآن خمس مجموعات قصصية هي:

الضحى العالي – دار شهدي ١٩٨٥.

عكس الريح – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مختارات فصول ١٩٨٧.

وش الفجر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مختارات فصول ١٩٩٣.

ترنيمة للدار – الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة أصوات ١٩٩٥.

طلل النار – الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة أصوات ١٩٩٧.

- صدرت له روايتان هما:

عطش الصبار – روايات الهلال ١٩٨٩.

تل الهوى – روايات الهلال ١٩٩٩.

- وله للأطفال:

١- خبز الصغار – دار الفتى العربي ١٩٨٨.

٢- أسد السيرك – دار الفتى العربي ١٩٨٩.

٣- طفولة الكلمات – الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٥.

٤- الأيام الأخيرة للجمل – رواية – هوبوبوكس ١٩٩٨.

- تحت الطبع:

١- غرف دافئة.. مقام بارد – مجموعة قصصية.

- وللأطفال:

١- حقل صغير.

٢- هكذا تكلمت الأشياء.

القسم الأول

الشمس تميل قليلا نحو الجهة الغربية، صورتها المعكوسة على قضيب الحديد كانت تزحف بسرعة السيارة..

أدنو الآن من الجزيرة البيضاء.

* * *

قالت البطاقة التي وقعت في أيدينا بعد وفاته إنه المنصور ابن الشحات، مولود قبل انقضاء القرن المنصرم بعامين، ثم دخل هذا القرن يحبو على قدميه، كأنه هو ذاته، جاء معه، ورحل قبل نهايته بقليل.

لو صدقت أرقام البطاقة يكون مولوداً بعد الاحتلال بستة عشر عاما، ويكون مصطفى كامل قد بلغ الرابعة والعشرين، (هل سمع به؟ لم يذكر اسمه أبدا، يبدو أن انشغال هذا المحامي بالكتابة في الصحف، والخطابة، والانتقال إلى

الخارج لإذاعة القضية لدى الجمهور الأجنبي لم يتح الفرصة لوصول هذا الصوت إلى الداخل، إلى القرى البعيدة).

أنهى دراسة الحقوق، واكتملت قدرته في السيطرة على الجملة البليغة؛ ليطلقها في الوادي "لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس" والمصري يحاول معه أن يهتك عنكبوت الوخم، يخرج من قوقعة الهزيمة، ويغفر لعرابي المنفي في سرنديب البعيدة (حدثني عنه لأنه بلدياته).

كانت البلدة – قبل عامين من ميلاد المنصور – قد تحولت من قسم تابع لمركز الصوالح إلى مركز يحمل اسمها[١]، نقلت إليها الأوراق والمصالح الأميرية نظرا لوقوعها على سكة الحديد.

انقضى زمن القوافل، وحضرنا زمن البخار الذي يشيع القوة في عضلات الحديد، ضمرت الصالحية والصوالح

---

[١] تقول الأسطورة إن الاسم القديم للبلدة هو (الجزيرة البيضاء) ثم جاءت جماعة من البدو بعد الفتح العربي يسألون عنها فقال لهم أحدهم: ها هي... فصار يطلق عليها اسم ههيا، بينما يؤكد محمد رمزي في كتابه القاموس الجغرافي أنه اسم قبطي قديم.

والعلاقمة والقرين وبلبيس لتحيا فاقوس وأبو كبير والزقازيق، حسم الأمر للبلاد الخضراء، والماء العذب، في مواجهة عصر الرمال والعير.

امتدت سكة الحديد شريانا جديدا يدفق دم الحياة في عروق الوادي، ماتت بلاد، وتأجل نمو بلاد، وبلاد ثبتت على حال القرى، لتبعث من الوجود والعدم مدن جديدة وقديمة. وانحازت الإدارة للحياة العصرية، فنقلت إلى هذه المدن أوراقها وأختامها ومكاتب المستخدمين، وأنشأت لهم مساكن لائقة بمواقعهم الوظيفية، وضمنت لهم حياة كريمة تحفظ هيبة الدولة الحديثة الناهضة من غفوة العصور الوسطى.

انطوت في التاريخ صفحات تحفظ للخيل والجمال مجدها، وشملت صفحات ناصعة لحياة الحديد الذي يجري على حديد، ينفث الدخان، دخان الروح، وتلبدت سماوات الحقول بسحب لا يسقط منها مطر، وانتفضت سيقان الزرع على ضجيج الآلة التي تنقل البشر والبضائع بين المدن والسواحل.

وجاء الآخرون من وراء الشواطئ ينقلون منتجات الأراضي السوداء إلى بلادهم البعيدة، ثم أتوا إلينا ببضائع

مستحدثة، ودارت ماكينات الحلج والغزل والنسج، وانطلقت تكتكات الطواحين تقلق سكون القرى الغافية.

ولد المنصور – عقب مد شريط القطار بأقل من أربعين عاما – في واحدة من هذه الدور المعتمة التي تفتح أبوابها وطاقاتها على شوارع ضيقة وملتوية لا تتسع إلا لجسد الإنسان وهياكل الماشية.

هذه البلدة ظلت طيلة التاريخ القديم حتى سنى صباه الباكر تحمل ملامح القرية، وتدار كما تدار القرى بعمدة وشيخ وعدد من الخفراء، تتحلق حول الجامع الكبير[٢] الذي أشيع أن أحد صحابة النبي أقام ردحاً من الزمان في موضعه، ولم يذكر لنا مروجو الإشاعة اسم هذا الصحابي الجليل الذي كان سببا في نشر الإسلام، وتشييد أول مسجد في الناحية، وقيل إنهم حين أرادوا تجديد بنائه عثروا أسفل جدار المحراب على حجر كبير محفور عليه تاريخ البلدة،

---

[٢] لا وجود لاسم هذا المسجد في كتب الخطط، وأشهرها كما هو معروف خطط المقريزي، والخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك.

وجاء رجال ليسافروا بهذا الحجر حيث ألحقوه بمتحف العاصمة[٣].

أقيم الخط على مسافة تقل عن الكيلومتر ما بين التل والسهل المسطح الذي ينأى عن ليونة البرك والمستنقعات وأراضي السبخ، انقضت الوحشة عن هذه المساحة، وبدأت الأقدام تدب رائحة غادية مع كل قطار، فخلقت لنفسها المماشي بين الحقول والماء الراكد.

الممشى الأول قام ما بين بوابة المحطة وقنطرة النهر التي تربط البلدة بالمولية[٤] الواقعة على الجانب الغربي؛ فلأهمية الأخيرة بالنسبة للأسرة العلوية، ولعلاقة ناسها بالسراي صار لها مكانة خاصة، فهم من الأسر التي والت إبراهيم باشا في حرب المورة، والكثير منهم عمل في الدائرة

---

(٣) قمنا بزيارة للمتحف للسؤال عن هذا الحجر التاريخي فلم نعثر له على أثر، بل إن المسئولين أكدوا أن المتحف لا يضم آثارا إسلامية تذكر لهذا البلد أو لغيرها من مدن وقرى المحافظة.

(٤) آثرت استخدام الاسم القديم ولم أستخدم الاسم الدارس "طناح" كما لم أستخدم الاسم غير الرسمي "العمارة" ولا الاسم الرسمي الذي ينسب إلى إبراهيم باشا.

السنية، أسرة الأسطى تنسب إلى السائق الخصوصي للعربة الخديوية، وأسرة البواب تنسب إلى بواب قصر عابدين، وأسرة البنحوشنجي تنسب إلى البستاني الذي كان يراعي حدائق القصر، وكذا باقي العائلات تعلو وتسفل وفقا لمكانتها وقربها من الحاكم، هذه العلاقة الوثيقة أدت إلى ازدهار المولية، والازدهار يصحبه نشاط وحركة ورغبة في التنقل وتبادل السلع وكثرة التردد على المدن القريبة والبعيدة، وتعدد السفر إلى العاصمة.

الممشى الآخر الذي بدأ من أول انحدار للتل(٥) إلى البوابة الحديدية الكبيرة الواصلة ما بين غرب خط القطار وشرقه، لم يكن أبدا طريقا ممهدا، بل بدأ كطريق ترابي نحيل يخترق الزراعات في التواء ملحوظ، فرضته حدود الملكيات والحركة المحدودة لأهل البلد الذين يتنقلون صباح مساء بما شيتهم من دورهم إلى الحقول الواقعة بالجهة الشرقية، كانوا – قبل قيام الخط الحديدي – يتوزعون في طرق شتى، ثم جاء الخط ليقفل عليهم الطريق إلى حقولهم،

---

(٥) هذا التل له تسمية خاصة تتردد على ألسنة العامة وهي "العلواية".

ويضطرهم لعبور البوابة الحديدية، لهذا فإن السير على طريق واحد أكد هذا الممشى وجعله ينمو ويتسع، غير أنه ظل محدودًا وضيقًا، ولم يتخذ لنفسه مسارًا حاسمًا كما حدث للأول الذي تطور مع الأيام، بافتراشه بالحصى والزلط، ثم في مرحلة لاحقة امتدت عليه طبقة سوداء من الإسفلت، وغرست على جانبيه أشجار العبل السامقة التي اقتلعت – فيما بعد – لتقوم البيوت على الجانبين ثم تفتح محلات البقالة والمطاعم والمقاهي والصيدليات وغيرها من المحلات التي تلبي حاجة العابر للطريق.

هذه إذن السكة الزراعية التي مازال أهل البلد رغم انتفاء صفة الزراعة يرددون اسمها.

كان إحياء هذا الطريق الهام الذي أجبر البلد على النزول إليه مع الخواجة ديمتري[٦] الذي جاء مباشرة عقب إنشاء سكة الحديد فافتتح في مواجهة المحطة مقهى ظل لفترة

---

[٦] قيل إن أصوله يونانية، وفي رواية أخرى ترجع أصوله إلى الطليانية وأرجح أنه ينسب إلى الطائفة الأولى، فقد أكدت كتب التاريخ الحديث أن هجمة جريجية دخلت مصر في النصف الثاني من القرن الماضي.

طويلة المكان المفضل لأعيان البلد من التجار والموظفين الكبار، وبقيت حتى زمن قريب لافتته السوداء المكتوب عليها بخط أصفر باهت (بورصة) تدل على أن هاهنا كانت تعقد صفقات القطن حيث كانت أكياسه المدكوكة تجمع بالقرب من المقهى، في هذه المساحة التي أقيم عليها مكتب البريد وورشة البلاط ليسهل حمله إلى عربات قطار البضائع الذي خصص له رصيف مستقل يمتد حتى المحطة الأولى لقطار الدلتا.

لم يكتف الخواجة ديمتري بهذا بل ابتنى لنفسه بيتا من الحجر[٧]، تكون البيت من دورين، الأول محل بقالة واسع جدا، والدور الثاني جعله لسكنه، هو وأسرته، ثم قسم محل البقالة، فجعل قسمه الداخلي (خمارة) لتناول الخمور، ولم يجرؤ أحد من أبناء البلد على التردد عليه، كانوا يقطعون الطريق أمامه، فيلكز أحدهم الآخر ويهمس في أذنه: إنهم في الداخل يشربون الخمر.

---

[٧] سيئول هذا البيت إلى أحد عماله بعد أن يضطر الخواجة لمغادرة مصر في بداية حكم عبد الناصر، وسيأتي ذكر هذا العامل في القسم الثاني من الكتاب.

أو يقص الطفل الذي قدم إلى محل البقالة على أمه كيف رأى رجالا لهم بشرة حمراء فاتحة يتحلقون موائد في عتمة المحل يكرعون كئوس الشراب. ومع الزمن تجرأ على اقتحام المكان بعض الأعيان، ثم جاء شبان البلد، خاصة في مواسم القطن حيث تكون جيوبهم عامرة بالمال.

بعد ذلك أنشأ الخواجة ديمتري الطاحونة التي كانت تدار بالثيران، يعقد النير على أعناقها، ويصله بحجر صوان ضخم له مجار منحوتة في باطنه، يدور على حجر آخر مثبت على الأرض. لم تكن الطاحونة في بدايتها تزيد عن رحى مهولة. ثم استيقظت البلد يوما على صوت الوابور الذي ينفض العادم من ماسورة ترتفع بطول نخلة.

في هذه الأثناء ضاقت دار عائلة المنصور بناسها، فطلب الجد العزلة، فهبط بأولاده التل العالي[٨] إلى السفح ليقيم داره على قيراط الأرض المجاور للطاحونة.

---

[٨] هناك رواية عن الأجداد تؤكد أن كل من لا يمتلك داراً في هذا الحي فإن أصوله لا ترد إلى البلد، وإنما هو من الأغراب الذين نزحوا إليها ليعملوا في الإدارات الحكومية المختلفة التي تكاثرت مع بداية انتقال المركز.

الشمس يزداد ميلها نحو الجهة الغربية، وصورتها المعكوسة على قضيب الحديد لم تزل تزحف بسرعة السيارة.

كنا نعبر القنطرة الأولى التي تنقل الماء إلى القرى الواقعة في الزمام الشرقي، وبعد أقل من كيلوين نعبر قنطرة أخرى. يمر من أسفلها ماء ترعة تقف على حافتها شواهد القبور.

ادخل الآن الجزيرة البيضاء.

* * *

- ١ -

حين فتح الباب، رأيتهم في الردهة يعصرون الدمع من مناديلهم، وقفوا جميعا في صمت، توقيرا لحزني، ولكن أحدا لم يتقدم نحوي، كنت نهبا لحيرتي؛ لأني لا أدري أية غرفة ادخل، وانتبهت أمي لذلك، فدنت مني، ضمتني إليها منهنهة، وواربت الباب الذي عن يميني.

رأيتك على سرير منخفض، تلملم بدنك النحيل ملاءة بيضاء، انزاحت قليلا عن الصدر، لتخرج منها ذراع وحيدة، ألقيتها أنت دون وعي منك، فلامست الأرض.

جلست على الحافة، وأمسكت بهذه اليد المهملة، جعلتها بين كفي، ورحت أدعكها بحنان، رأيت الوشم الذي يدور كخاتم قديم أسفل الإبهام، شبكت أصابعي في سلامياتها، وضغطت علك تنتبه إلى حضوري، لكنك كنت مشغولا باستنشاق الهواء بجهد ليطرده صدرك المنتفض في دفعات قوية.

اقتربت أمي لتصيح في أذنك: كامل جاء.. انظر إليه. وجاهدت في أن ترفع الجفنين حتى رأيت الغشاوة التي وارت العين. كم جرحتني بنظراتها الآمرة.

لم يرتفع الجفنان أكثر من ثانية، وسقطا مرة أخرى بلا إرادة منك، وفاضت من تحتهما دمعة كبيرة. بللت جفافهما الأزلي. سالت الدمعة على صدغيك، فكاد قلبي ينتزع من موضعه لشدة الهول.. كيف تبكي؟ كيف تضعف؟

ونشجت بشدة حتى انهار جسمي عليك، وقدرت أن أفعل ما عجزت عنه عمري. أن احتضنك.

قال الذين يجلسون بالخارج: أغلقوا عليهما الباب.

حين سقط الظلام، وانحبس عمود النور بين الضلفتين. سمعت نحيبهم، ورأيت عينيك تتفتحان عن آخرهما، فحرت ما بين الخوف والرجاء.

* * *

– ٢ –

أراني واقفًا أمام أبي (جدك) الذي سيستدعونني يومًا وأنا جالس بين الرجال لأسمع كركعاته وهو نائم على ظهره عاريا فوق المغسلة، رفع كفي الصغيرة الباردة، وطوى أصابعي على الفرش، ثم فتح لي الباب فواجهني تيار الهواء الذي أزال روائح دخان القش من غرف البيت ومن جسدي، ودعا الله أن يفتحها في وجهي، ومن الداخل أتاني صوت

أمي (جدتك) التي ستعيش حتى تموت فاقدة البصر وهي تدعو الله بأن ينور طريقي ويحل عقدة لساني ساعة سؤالي، يا للمسكينين كانا يحلمان بأن أصير من رجال العلم!!

سرت متأبطا لوحي ومنديل غدائي محاذرا بحيرات الماء المتجمعة من أمطار البارحة، ولاقيت في طريقي ديمتري صاحب الطاحونة (التي ستؤول إليَّ) يشرف على رجاله، وهم يضعون الحجارة الكبيرة، من أول الشارع حتى حجرة الميزان.

- ناموسيتك كحلي يا منصور.

- صباح الخير يا خواجة.

- مطر كتير.. زبون ما في.. فلوس ما في.

رفعني واحد من رجاله، وسار بي فوق الحجارة، ووضعني على أول الطريق.

- احفظ القرآن يا ولد.

- يا مطرة رخي.. رخي..

- امشي كلبة.

على يميني الدار التي سأبتاعها لتدخل حرم الطاحونة كي تحقق المسافة القانونية بين الوابور وأقرب جار، وعن شمالي الأرض إلى سأؤجرها لأزرع فيها عيدان القصب، قبل أن يتحقق الحلم في امتلاك الطاحونة.

على آخر زاوية من هذه الأرض يطل المقام المدهون بالجير الأبيض، وتميل على قبته أغصان الجميزة العريقة.

لاقيته تحتها، يدق المسمار الحدادي في جذعها، انتبه لقدومي، فأشار إلي، قال: يمكنك أن تعلق صرة الغداء في هذا المسمار.

- لا أريد البقاء معك فقد تغيبت بما فيه الكفاية.

- أنت الآن تفك الحروف بعينك وترسم الحروف بيدك.

- لم أختم أجزاء القرآن.

- ها أنت تراني في مكاني لا أقرأ ولا أكتب ولا ينقصني شيء.

- إن الشيخ قد يخبر أبي عن غيابي.

- سنبتني اليوم حظيرة كبيرة.

- أنا البنّاء.

- طبعا.

- لابد للحظيرة من مواشٍ تربط على مداودها.

- لدى كلبان رائعان..علق الصرة هاهنا وسأدلك على مكانهما.

علقت الصرة، وركنت اللوح على عتبة المقام بينما هو يحضر الطوب، ويعجن التراب في الماء، ذهبت إلى القناة الجافة التي تلتف حول داره حيث وجدتهما هناك مغمض العينين، رفعتهما من جلدة العنق، وعدت إليه، فوجدته قد فرد الصرة على الأرض وأخرج الخبز والجبن، قال والطعام يتناثر من فمه.

- الكلبان بالرغيف والغموس.

ظل يساومني بصرة غدائي مقابل اللهو بجرائه وتشييد البيوت الصغيرة حتى فاجأني أبي ذات صباح، فأمسكني من قفاي، وجرني إلى البيت، غلق على باب الحجرة و.. "فين يوجعك" وكنت أسمع نحيب أمي من الخارج.

- تستاهل.. تبيع كتاب الله بكلاب صغيرة.

صباح اليوم التالي عقدت لي صرة الغداء، هذه المرة لم يكن طريقي إلى الكتاب إنما وضعت على الحمارة قهرا.

وسحبت مع الماشية إلى غيط "الحاشية"[٩].

قضيت فيه صباي، وأول فتوتي، ثم عدت شابا لأؤجر الأرض التي لهوت عليها طفلاً، وعشقت بين حدود ليلها أول امرأة، كانت من نصيبي.

* * *

– ٣ –

دخل علينا أخي فؤاد (الذي سيدفن إلى جوار أبيه بعد رحيله بخمس سنوات) فعادت العين الكليلة إلى إغماضتها، وألقيت الذراع إلى فراش الأرض، ربت على كتفي مواسيا، ومال على وجه أبيه: كيف حالك اليوم؟

وهمس في أذني: تسمح.

وأخرجني من غرفة الأب (التي سنحيلها إلى مدخل للبيت حين نعيد بناءه) دسنا بنعالنا على الحصير الذي تتوزع

---

[٩] منسوب إلى أحد رجال الحاشية الملكية، من المعروف أن معظم أراضي الحوض الشرقي من أنشاص إلى الصالحية من أملاك الأسرة العلوية، والمنطقة التي هي محور هذا العمل كانت أملاكها تتبع محمد علي باشا ابن الخديو توفيق، والبرنس حليم باشا.

عليه النسوة، لنمرق إلى الغرفة الغربية (سنقسمها فيما بعد لنشكل منها المطبخ والحمام) نفض الجلباب عند بطنه البارزة، وسحب من حافظته ورقة صغيرة.

- أنا أسجل كل شيء.

- تقصد المصاريف.

- لا حرج في هذا.. لن يخسر أحدنا شيئا من جيبه.

- كله من خيره.

- طبعا.. عدت للتو من الجبانة.

- إنك تتعجل الوفاة.

- حاشا لله.. التربة كانت مهملة، فأخذت رجلين فتحنا العين وكومنا العظام القديمة على جنب، وكنسنا مكانها، ثم فرشناها بالرمل، واعددنا الطوب الأحمر والأسمنت (سأراه بعد خمس سنين وهو يُرفع عن النعش ملفوفا في كفنه ليدخل من نفس العين ليمدد بطوله على رمل جديد إلى جوار كومة من عظام الأب).

- يا أخي ينبغي أن نتحدث عن الطبيب المعالج، لا إعداد المقبرة.

- أنت صغير السن ولا دراية لك بمثل هذه المواقف المحرجة.

- ربما.

- هل حدثك عن المال الذي ادخره لمثل هذا اليوم؟

- أبدا.

- قلنا إنه استعجل قدومك لهذا الغرض.

ورأيت أمي (التي سترحل بعد خمسة شهور من رحيل الأب) تقبل نحونا، فأدار ظهره، وتشاغل بالنظر إلى السقف، وقفت بيننا عاقدة يدها على بطنها. ونظرت إلى أخي:

- هكذا ينعقد لسانك فجأة كلما لمحت وجهي.

- يا خالة أقول له لابد من طبيب كبير للكشف عليه.

- ولماذا لم تفعل ذلك قبل مجيئه!

- وهل قصرت؟ لم يسهر عليه غيري.

- اذهب لحالك.

- سأختفي عن وجهك، ومن يحتاجني فإنكم تعرفون بيتي.

واتجه غاضبا نحو الباب، ومدت الأم يدها إليَّ قائلة.

- إنك بحاجة للراحة.

- فعلاً.

- السفر كان شاقاً بالنسبة إليك؟

- سأموت من الجوع.

- غيَّر ملابسك وشطف وجهك أولا.

عدت إلى الردهة حيث النسوة القابعات بجلابيبهن السوداء، كان باب غرفة الأب مفتوحا، وصوت شهيقه وزفيره يملأ المكان، ولمحته بجانب عيني ينظر نحوي ببسمة حلوة لم تعل وجهه إلا مع سنوات الشيخوخة المتأخرة.

* * *

- ٤ -

دخلت غرفتي المهجورة (سنجعلها محلا يفتح أبوابه على الشارع الرئيسي) لم يتبدل شيء فيها، السرير في مكانه تحت النافذة العالية، والمكتب الصغير أمام أرفف المكتبة المعلقة على الحائط والطاولة عليها الصينية الدائرية التي تحتوي على علب الشاي والسكر وموقد السبرتو.

فتحت زجاج النافذة المنخفضة، وتركت الشيش مغلقا. فسرت في الغرفة نسمة هواء خفيفة مصحوبة بأصوات

الشارع. ياه.. وفردت ذراعي عن آخرهما، وحركت جسدي إلى الأمام وإلى الخلف، مددت طولي بعرض السرير فثارت ذرات غبار نفضتها بيدي.

وسرحت أفكاري إلى الليالي الطويلة التي قضيتها بين جدران هذه الغرفة، شرنقتي التي تشكل فيها العقل والوجدان معا، الرحلة بدأت من هاهنا.. فهل ستصل إلى منتهاها في نفس المكان؟

(ورأيتني أصعد سلماً قديماً، ليس له سور، خيل لي أني سأقع إذا زلت القدم، وكنا تركنا الظلام في المدخل، ظلام باهت، مما أكد لي أن الشمس رحلت إلى بلادها البعيدة، والبيت قبل أن ندخله كان عالياً، وموحشاً، والخلاء كان جاثماً بين نخيل وأشجار خريفية، لا شيء.. فقط البيت، بمشربيات ومداخن، وسطح منحدر على الجانبين.

وقفنا أمام الباب المهترئ، نصفه الأعلى مفتوحا، لا زجاج.

في عينيها مكر حواء، وفي قلبي حب، وغيرة.

شعرها فوضى، ورداؤها خرقة، بانت أفخاذها البيضاء فيها الرغبة والنار.

طرقت كصديقة ومبشرة، رفضت أن أصحبها إلى هذا المكان، آثرت أن نمارس حبنا وحيدين، في كهف، أو على قناة أو بين فرعي شجرة كثيفة الأوراق، لكنها جرتني عنوة، قالت: إن لي هنا أصدقاء.. يمكن أن نمكث معهم.

شكت الغيرة قلبي، سألت: ولم مع الآخرين.. أنا الذي يحبك.. أنا الذي آمرك.

النافرة المعذبة لم ترد، مدت يدها في نعومة إلى الرسغ، وجرتني، أنا حيالها ضعيف مغلوب، لا أملك إلا أن أسير خلفها، قاتلتي مازالت بمديتها الباردة تحز في بقايا عنقي.

بعد الطرقة الثالثة خرج شاب، رأيت فيه ملامح زميل قديم، كان هو، النحيل الضئيل، رآني، تجاهلني، شدها من يدها، وأغلق من خلفها الباب، كانت يدي ممدوحة من فتحة الباب العلوية بالتحية، لم يسلم، وذهب، صرخت، العجيب أنها لم تهتم، ذهبت معه كمومس تعرف طريقها.

سمعت ضجيجا بالداخل، يبدو أن معه آخرين، دقت يدي الباب بعنف، دقت، ودقت.. كانوا يحيطونها في الردهة أمامي، يقبلونها بتهافت، ويرفعون ثيابها بلا احترام، رأيت

حتى سراويلها، هي حبيبتي لا يرفعه غيري، العجيب أنها لم تظهر نفورا.

اللعوب بالداخل، أنا لا أقدر على فراقها.

خبطات يدي كادت تكسر الباب، جاء الذي بملامح الزميل القديم، كان عاريا، ذهب نظري للتو إلى ما بين فخذيه، البغل نسي أن يخفي عورته، زعق في وجهي – عبر الباب – ماذا تريد؟

في ضعف أجبت: أدخل.

ودخلت، إلى جوارها وقفت، حضنت كفيها: ماذا يبغون منك؟

لم ترد، عيونها حزينة، يبدو أنهم أقوياء بما فيه الكفاية، أو أن عادة أن تجيء إليهم أقوى منها.

رأيت في ملامح الآخرين أصدقاء قدامى، هم من كانوا ينافسونني، أكرههم، عوراتهم خارج سراويلهم، خفتهم، قلت في نفسي: وقاحة.. لابد لهؤلاء أن يلقوا الموت على يدي هاتين.

وأكدت: كل شيء يقع في حينه.

مشت ورائي بإذعان، واعتذرت بنظرة للآخرين، بصقوا، بصقاتهم نار تشبثت بظهري، لم أنظر ورائي، همست: حبيبتي لم تفعلين ذلك؟ أنت لي.

ونظرت في خفر، على السلم المظلم، أدرتها بعنف، هرست بأسناني شفتيها، وطفرت من عيني دمعتان ثقيلتان، ونشوة تكثفت في أرنبة الأنف، لم أدر أن أظافري هتكت ثيابها من خلف، وددت لو أضربها، أضربها، وفي أثناء ذلك تأتيني الذروة).

* * *

– ٥ –

من الذي منحك اسمك؟

السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أعطى اسمه للصالحية.

والعباسة أخت أحمد بن طولون أعطت اسمها لبلدة العباسة. والمقاول إبراهيم زقزوق ترك اسم عائلته للزقازيق. (وهبه محمد على الكبير هذه العطية لدوره العظيم في جلب العمال الذين رفعوا على أكتافهم حجارة القناطر التسعة التي كانت سبباً لنشأة هذه المدينة الحديثة) المدينة الغلاّبة التي

كانت على موعد مع العصر الجديد، فقضت على بلبيس العريقة، سحبت منها الأوراق والأختام والموظفين والتجار والأعيان، وكانت نشأتها فارقاً في الزمان. غلقت على بلبيس أبواب التاريخ، وفتحت لنفسها نوافذ، ومهدت طرقا نحو عالم المدينة المعاصر.

قطعت جيوش الغزاة الطريق بعيدا عنك.

كنت قابعة على أرضك السوداء إلى جوار النهر، كامنة في سذاجتك، كأن الأمر لا يعنيك، واكتفيت بإرسال الخراج لمن غلب، وتطهرت أرضك من دنس أقدام الجند، تدور المعارك في ساحات بعيدة، تنصتين إلى عجيجها، ولا ينتفض لك عرق. فهل كنت عليمة بالنهايات؟

دوما هناك فوق تلك الأرض قابضة على أذيال ثوبك البالي من ماء الفيضان، وترفعين أقدامك خشية السقوط في مهوى البرك والمستنقعات التي يخلفها وراءه.

هؤلاء أول القادمين، إنهم الرعاة الذين أسمتهم كتب التاريخ الهكسوس، ها هم يدقون أوتاد خيامهم من وبر على أطراف الصحراء، بينك وبينهم مسافة كافية، تكفل لك الحماية.

يمر قمبيز فلا يقف على أعتابك.

ويأتي الإسكندر من الغرب فتنأى عنك المسافات، فهذه المرة يأتي الأغراب من الجهة المعاكسة، وصارت أرضك طرفا شرقيا، لا تطاله اليد، فهل كنت بعيدة حقا؟

ويجيء يوليوس قيصر، ثم أكتافيوس، وتبدل أسماء المدن. هل حقًّا كنت موجودة؟ هل كان لك اسم؟ أولدت في زمن الفراعين أم في عصر البطالسة؟ هل كنت نواة قرية حين كانت أرضك تسمى جاشان؟ هل منحك يهوه إلههم الدموي اسمك؟

وجاء عمرو ليعيد للطريق الشرقي الحياة.

فأين كنت يوم عبر بجيشه؟

قال التاريخ إنه استراح في القرين التابعة لك.

مرة أخرى الصحراء تجيء، والخشية من عبور الأنهار إلى الأرض السوداء "لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف". هكذا نصحهم الخليفة ابن البادية، هو يهاب الماء، ويسعد بخراج الأرض "فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت، ومن معك، أن أهلك أنا ومن معي، فياغوثاه، ثم يا غوثاه".

ويرد عليه عامله "فيا لبيك، قد بعثت إليك بعير أولها عندك، وآخرها عندي...".

* * *

لويت رأسي جهة الباب لآمر الطارق بالدخول.

فدخلت أمي (ستلفظ أنفاسها الأخيرة بين جدران هذه الغرفة، وعلى سريري الذي يرفع بدني الآن) كانت في جلبابها الأسود تحمل صينية واسعة عليها أطباق الطعام.

- ضعيها على المكتب.

- ستتناول طعامك في هذه الظلمة؟

- بعد قليل سيحل الظلام بالخارج أيضًا.

* * *

- ٦ -

النهر وسكة القطار وأنت بينهما تعافرين لتقضي على قدميك، متوكئة على خطين، خط من ماء وآخر من حديد.

ليس في نشأتك غرابة، فأنت لم تولدي بمعجزة، ككثير من البلدان، فلا التففت حول ضريح ولي ذي كرامات، ولا تخلفت عن ثكنة عسكرية في موقعة مشهورة، ولا قام على

أرضك أثر[10] ينتهي إلى عصر من العصور، بداية عادية لقرية عادية، لا يسكنها سادة، ولا منحها اسمه قائد من القواد.

لتاريخك سحنة نهرك، انسياب ساكن، لا يُسمع له هدير، ولا خرير، لو ألقي الحجر على صفحة الماء لخرجت تستطلعين الخبر.

أضناني البحث عن أصل لك في الكتب القديمة.

طالعت قوانين الدواوين لابن مماتي، وقرأت كتاب ياقوت "معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان" وقلبت صفحات البكري "معجم ما استعجم في أسماء الأماكن والبلدان" وكتاب ابن الجياع "التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية".

---

[10] اللهم إلا إذا اعتبرنا رؤوس الجمال والمساخيط الذهبية التي يزعم أهل البلد أن فلاناً عثر عليها في زريبة من الزرائب أو في جـــدار من الجدران القديمة لتبرير ثرائه المفاجئ أثراً من الآثار الجــديرة بالعناية.

وجدتك في صفحة وحيدة من كتاب علماء الحملة حين قدموا مستطلعين رحلة "مويس" الذي يصب في المالح بأقصى الشمال، قال كتاب وصف مصر: على بعد ثلاثة فراسخ من بوباسطة، وعلى نفس الشاطئ توجد مدينة صغيرة حديثة محاطة بغابة كثيفة من النخيل، وعلى الرغم من أن اسمها كان مجهولا من كل الجغرافيين ومن أنها لم تكن معروفة في ذلك الجزء من البلاد الذي يعد متحضرا، فإنها فيما يبدو كانت تضم سكانا كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان المحيطة بها، والجزء من غابة النخيل القريب من السكان، يزرع في شكل تخميسة "أربع في زوايا المربع وواحدة في الوسط" وبعناية تشبه العناية التي تلقاها الحدائق الأوربية، وتحاط المدينة بسور به فتحات يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وهو في حالة جيدة تعلوه أبراج قوية مسلحة بصف مزدوج من متاريس الطوابي.

وتعلو أبوابها التي صنعت بشكل أسطواني جزءا من السور، ويبدو سكان هذا المدينة أكثر تحضرا من جيرانهم، ومنذ غادرنا النهر وجدنا الناس في كل مكان يحملون السلاح، يسودهم روح من التمرد والضجر، وفي هذه

المدينة، وعلى الرغم من أننا كنا – ربما – أول أوربيين يمثلون أمام ناظرهم، خرج الناس في شكل جمهور ليقدموا لنا الأطعمة ولم نلمح من بينهم رجلا مسلحا.

وابتداء من ضواحي المدينة، وحتى الجزء الأدنى من الترعة لاحظنا على الشاطئين وجود عدد كبير من الأبراج المبنية بلا أبواب ولا نوافذ والتي تخترقها بعض الطوابي، وهذه الأبراج تستخدم كمأوى للسكان عندما يفاجئهم أو يلاحقهم عربان الصحراء فيصعدوا إليها بسلالم من حبال.

* * *

– ٧ –

أفزعني دخولك المفاجئ، وأنت بقميصك الأبيض القطني المبلل عند الصدر، تدفع بذراعك الجافة كتل السواد التي تشدك من الخلف، وضجت غرفتي بصياحك الذي أطلقته بعزم جسدك المحتضر في النسوة المتشبثات بقميصك: دعوني.

أزحت صينية الطعام جانبا، وأقبلت عليك لآخذ بيدك، ارتخت ذراعك في قبضتي، وسرت أمامي طيعاً كطفل يتعلم

الحبو، رفعتك إلى سريري بحذر، واستجبت لي حين أملت ظهرك لأدس الوسائد.

قلت لأمي التي وقفت تنوح مع النسوة: عودي بهن إلى الصالة.

- ألف سلامة عليك يا غالي.

ولوحن بمناديلهن نحوك وهن يسحبن أبدانهن الثقيلة إلى الخارج.

كنت تجاهد مع النفس، يأتي الشهيق فتنفضه نفضا، ويعقبه الزفير فتنكمش حد التلاشي، تركتك حتى هدأت تماما.

واستعدت سلامك مع البدن الواهي، قلت لي: عودتك يا كامل أطلقت بجسمي قوة الحصان.

- الحمد لله.

- سلمت أمري لملاك الموت طالما سأموت بين يديك.

- أتمنى لك الشفاء والعافية.

- إنهم بالخارج يرجون رحيلي الساعة قبل الغد.

- متعك الله بطول العمر.

* * *

- ٨ -

أراني أنا المنصور بن الشحات في ليلة لا نجمة فيها ولا قمر. كنت في الخص الذي أقمت جوانبه من سدد الغاب، وعرشته بالجريد والقش، ووقعت عيني على الرجل ينحدر على الأرض باتجاه خيال المآتة المنصوب وسط الزرع، كان ينحدر عبر الفضاء المفتوح من جهة ميدان المحطة.

كنا – في ذاك الزمان البعيد – نراه مساحة واسعة خالية من الدور والمباني المرتفعة، تنته حدود الأرض المزروعة بالخضار، بعيدان القصب التي تنغلق على الغموض والتوجس، وكنت في هذه اللحظة أنتظر قدومها من نفس الاتجاه، فلم أرغب في القيام إليه حتى لا يعطل موعدي المختلس.

كان لم يزل ينحدر على (ريشة) القناة المائلة نحو الأرض، هذه القناة كانت تجلب ماءها من الترعة الموازية للسكة الحديد، هل رأيتها؟

ردمت قبل عام الوحدة بعام، وبعد عام العدوان الثلاثي بعام، فالسيارات بدأت تتردد بكثرة من العاصمة إلى مدن الأقاليم الشمالية، والطريق القديم لم يعد صالحاً لاستقبالها،

واختنق مدخل البلد بأعدادها الكثيرة، فمدوا المواسير الضخمة تحت الأرض، وجعلوا لها فتحات كغرف التفتيش، وسيجوا شريط القطار بسور من الدبش الأبيض، ليقل خطر الحوادث، فكم من رجال وأطفال دهستهم عجلات القطار، حين كانوا لا يحاذرون على أنفسهم عند عبور الشريط.

والساقية كنت تراها على رأس الحقل هناك، بنفس الموضع الذي تشغله الآن محمصة البن: كانت القناة التي أروي منها أرض القصب فرعا من قناة كبيرة تتفرع روافدها في الأرض الواسعة التي كانت تشكل سفح التل القديم.

المهم أني تجاهلت الرجل، ولم أنبهه لوجودي حتى لا يضيع على موعدي المنتظر، وهو ظل سادرا في اقتحامه للأرض، ويدنو من خيال المآتة على ظن بأنه صاحب الأرض، يدنو منه مادا يده بثمن القصب: يا عم.. عم يا بتاع القصب.

والخيال قابع بمعطفه القديم، وبيديه الممدودتين عن آخرهما ورأسه الكبير الملفوف بقماش بالٍ.

والرجل يقترب: عاوز قصب يا عم.

ولما صار قريبًا جدًّا من الخيال اكتشف صمته الكئيب، فدار دورة كاملة حول نفسه أدت إلى سقوطه على وجهه حتى سمعته ينفجر بضربة عظيمة اهتزت لها عيدان القصب، وقام على يديه ورجليه، ثم هوى مرة أخرى، وراح يهوي ويقوم فلم يصلب له حيل إلا وهو يغادر حدود الأرض.

ولم أتمالك نفسي، فاستلقيت على ظهري وأنا أقهقه على مشهد الرجل المرعوب، ولم أستفق إلا على شبحها الواقف على مدخل الخص.

كان أبي قد قال لي حين زارني في الخص ذات صباح فوجد فطيرة البارحة: والله يا ابن الخاسرة لتموت مسموما. فقلت له: خليها على الله.

وقص علي حكاية العشيقة التي دست السم في فطيرة المعشوق بعد أن لاقت منه الأمرين، وراوغها في الزواج بعدما وقع المحظور، فقلت له: لكني أريدها.

وكنا قد تقدمنا لأبيها، فأصر على مهر لا يقل مليما عن ستة عشرة جنيها ذهبيا، ولم أكن أملك غير الخمسة عشر،

وأصر أبي على هذا المبلغ لا يزيد مليماً، وتمسك أبوها بطلبه.

ونفض أبي نفسه من الجلسة غاضبا، وقطعت عهدا على نفسي لتكملة المهر المطلوب، ونويت على الكدح ليل نهار، على أن يمنحني مهلة لا تقل عن العام، وخلع أبي يده من الموضوع.

ولم تنقطع هي عن التردد على الخص ليلاً، وقضينا أمسيات هنية بين سيقان الغاب وعريشة القش، نخطط لأيامنا المقبلة.

دخلت عليَّ في هذه الليلة – فوجدتني على حالي، تنطلق مني الضحكات غصباً كلما استعدت مشهد الرجل الهارب من خيال المآته. قالت: من يضحك لوحده يزور.

وضعت صرة الفطائر جانباً، ومالت عليَّ بجزعها فضممتها إلى صدري بشوق لا ينفد، وانتشر في المكان فوح الفطائر الدسمة ورائحة السمن البلدي مخلوطاً بالعجين الذي استوى على مهل في نار الفرن المقدوح بحطب الذرة، واقترنت لدى هذه الرائحة بليالي الغرام الأول، فهي تستعيد لي عنفوان الصبى المنقضي، فهل لها من استعادة؟ أم أنها

ترسبت هناك في قاع الذكريات البعيدة، وصارت المستحيل ذاته؟

قلت لها: هانت يا أمينة، على آخر الموسم يجمعنا السقف الحلال. قالت إن أباها يبذل كل الجهد لخلعه من دماغها، وهو عليم بأن جهده هباء، وأمي تصده قائلة له لا تحاول هي له وهو لها.

- هل تعلم بمجيئك إلى هنا؟

- ومتى رأيت أما ترضي لابنتها الزيارة الليلية لشاب يتكلم عنها؟

- هذا صحيح.

- هي تنام بعد صلاة العشاء مباشرة، وأبي يخرج ليتمم على خفرائه.

- وأنا مطمئن أنه لن يأتي خصي أبدا.

- سيعود إلى السهر معك ليشرب شايك الحبر إذا وفقنا للزواج.

- ربنا يسهل.

- إن الأمور تتعقد خاصة بعد أن انضمت إليكم أختك وأولادها.

وكانت أختي الكبيرة قد انتقلت إلى دارنا بعد مصرع زوجها، طاحونة ديمتري لم تكتف بفديتها الأولى، ذلك الصبي الذي التهمه السير من يد أمه، وهمدت قلوب الناس عقب الحادث، وقالوا ها هي الطاحونة تنتقم لنفسها. هذا الكافر جحد حقها في الفداء، فكظمت غيظها، وتركته يعمل، يدير آلاتها، ينقل الحركة من الوابور إلى السير الذي يتمطى تحت (السندرة) من حجرة العدة حتى القادوس لينقل الحركة إلى الحجر الصوان المنقوش، دارت الطاحونة، ولم تعلن عن حاجتها أبدا، وكان الناس كلما سمعوا صوت العادم تقذفه خارجها في كتل دخانية داكنة يقولون هذا هو نداء الدم. إن الطاحونة تطالب بحقها، حتى كانت تلك الظهيرة الحامية، حين غافلت الأم الذاهبة لطحن غلالها فخطفت الولد من يدها، التهمة السير الشرس، وهرسه تحت أسنانه، طوى الجسد الصغير تحت لسانه المطاطي الأسود، وراح وجاء بين الطارات، ثم لفظه قطعا من عظام ولحم فوق الأرض المنداة بالزيت.

واضطر ديمتري إلى بيع الطاحونة لعائلة زوج الأخت الذي امتلك سهما مع إخوته، هؤلاء الأخوة الذين كانوا يعملون عند ديمتري، فتعلموا الحرفة الجديدة، فنقلتهم من شقاء الفلاحة إلى ترف الجلوس على دكة الميزان، وعلى كرسي الطحان.

ودخل زوج الأخت ذات صباح ليرفع السير من الطارة المتحركة إلى الطارة الساكنة، فما أن ثبته على الثانية حتى لفه معه، فدارا سويا، بعدها جمعوه عجينا أحمر في جوال قديم.

وعلق أهل البلد قائلين: الملعونة أخذت فداء المشتري الجديد. قلت لها: رزقهم على الله.. ولكن لن أكف عن المطالبة بحق هؤلاء اليتامى من أعمامهم.

وسألتني: ماذا ستفعل لمواجهتهم؟

– المشكلة ليست معهم.. المسألة في يد الأخت.

– كيف؟

– إنها تخفي الورقة التي تثبت حق زوجها في الطاحونة، وتخطط للاستقلال بحياتها والعيش بما سيمنون به

عليها، وأنا أريد استغلال هذا الحق في المطالبة بحقوق أبي أيضا.

- أبوك!!

- إن له دينا عندهم، وهم يماطلون، سأخوض المعركة معركتين ولن أرتاح حتى تئول هذه الطاحونة لنا، يكفي العمل في أراضي الآخرين. أحلم بأن تكون لي أرضي، وأحلم أن أتعلم حرفة أصحاب الطواحين، ليكون لي ملكية الأرض والطاحونة.

وانطلقت الرصاصة فاغتالت الصمت، ونثرت أشلاء خيال المآتة بين خطوط الزرع، خيل إليَّ أن القمر قد انطفأ، وانطمس المكان تحت ظلمة أشد حلكة، لم تمنعني من رؤية شبح الرجل الذي جاءني أول الليل يطلب قصباً، كان في زيه الرسمي يعتمر لبدة الخفير، ويحمل بندقية الخفير، ويشير للرجل الآخر نحو المكان، تقدم الرجل بعد أن عاد الخفير إلى دركه، كان يتوجه باتجاه الخص مصدرا بندقيته أمامه، وصاح: اخرجي يا أمينة.

همست إليَّ: هذا أبي، واندفعت لتحمي جسدي من رصاص بندقيته، وقفت أمامي فاردة ذراعيها، وخرجنا أنا وهي من الخص لنواجه الأب.

- تعالى يا فاجرة.

تمالكت نفسي وقلت متحديا: أردتها على سنة الله ورسوله.

لم يجب على كلامي، وسحبها من كفها ليدفعها أمامه، وقبل أن يعبر القناة الجافة، التفت نحوي ليقول:

- تأتي في الغد لتطلبها شرعا.. لا يهم الجنيه.

* * *

- ٩ -

كم مرة دست هذه الأرض يا كامل؟

مائة مرة، ألف مرة، مليون مرة، مرات. لا تحصى، ولا تعد، هل يحفظ المرء خطوات أقدامه؟ الذاكرة تمتص، وترسب، وتبقى من الواقعة صورة أو صورتان، ليس من الضروري أن يكون عدد الخطوات موحداً في كل الأمكنة، ولكنها بالتأكيد تكثر في مواقع الحنين، وتبهت في مواقع

النأي، واللاضرورة. مركز العالم هو مسقط الرأس، وما عداه هو مجرد دوائر تلتف حوله. الدائرة الأولى الأكثر اتساعا هي الأضعف في التذكر وكلما ضاقت الدائرة تتكثف الذكرى حتى الوصول إلى النقطة التي لا قطر لها ولا محيط، إنها بؤرة الميلاد. مساحة الحبو ونطاق القيام للاستناد على أول جدار، منحة الضوء الأولية واللقاء الذي لا ينسى بلمسة النور الحاني، السعي إلى الكتاب، الطريق إلى المدرسة، الدرج الذي يأخذك للصعود إلى مئذنة الحي لترى الدنيا الواسعة، من فوق، من أعلى مكان ترى فيه الأسطح وأبراج الحمام وذؤابات النخيل، وفضة النهر السائلة في أقصى الطرف الغربي. التردد على الحي الجديد الذي انتقلت إليه الأسرة حين ضحكت الدنيا للأب، فضاعفت رزقه، ليخرج من عتمات دار العائلة إلى بيته الذي صب قوالبه من طين الأرض التي فاضت به كما تفيض عادة بخيرها العميم.

ما بين الحيين كانت الخطوات...

وكان خروجي في هذه الساعة، أقف ليلا على عتبة الباب، أستطلع وجوه المارة، إنه موعد العودة من الحقول، الحمير ترفع الأحمال، يجلس عليها أولاد يمسكون بحبال

دواب لا تخفي بهجة العودة بعد أن امتلأت بطونها وارتوت من ماء الترع، عفرة قليلة تنتشر في المكان، وزخم روائح المغربية، هو خليط من أنفاس الماشية ونبات الأرض، مزيج من عبق الزرائب الخصبة بالروث الطازج وزفير الإنسان الآكل للخبز ونواتج الألبان.

أقطع الشارع المفتوح عليه بابنا، لأدخل الشارع الفرعي. على هذه الناصية، بل في هذه الزاوية بالذات، كان يجلس التركي، يقول أبي إنه كان يأتي كل صباح بكرسي الخيزران، ليحط عليه بدنه الممتلئ، تحت ظلة هذا البيت القديم، دائما يختار الظلة.

لأنه لا يستطيع أن يفتح عينيه في النور، يضع الساق على الساق، راميا ظهره إلى الخلف، كتلته تشع البياض، الجلباب، وشال العمامة، والنعل، وعظمة المنشة المصنوعة من ذيل حصان، يبرم شاربه الناصع من طرفيه، وينتظر النسوة الذاهبات إلى الطاحونة، فيخرج من جيبه عملة فضية كبيرة، ويشير إلى المرأة التي يهتز بدنها تحت ثقل الطحين.

- بارة.. تعالي.. بارة..

هو لا ينوي القيام، ولا يخطر بباله أبدا أن يصحب امرأة إلى بيته، حيث يعيش وحيدا، يكتفي بهذه الإشارة، وحين تمرق المرأة من أمامه، وتختفي وراء سور الطاحونة، يعود بظهره إلى الخلف، ويروح يهش الذباب عن وجهه، بانتظار امرأة أخرى، هو لا يختار واحدة بعينها، لا يفكر في الجمال ولا في القبح، يكفيه أنها امرأة، أية امرأة ليميل بانحناءة خفيفة إلى الأمام، ويشير بعملته الفضية: بارة.. تعالي.. بارة.

أما أنا فقد عاصرت المرأة التي سكنت بيته، رأيتها دائما وحيدة، كانت زوجة لموظف، أتى بها إلى البلد، حين دعته الضرورة للحاق بعمله، أنجب أولاده هنا، وأنهوا تعليمهم في مدارسنا، ثم غادروا إلى الدنيا الواسعة، وتركوا الأم والأب وحيدين، ثم كان على الأب أن يلبي نداء ربه، فانتقل إلى العالم الآخر.

كنا لا نرى هذه المرأة سالف الأيام، وفجأة خرجت على الناس بطشت كبير، وزعت في مساحته القلل البيضاء النظيفة، تقعد من الصباح الباكر على عتبة الدار، وأمامها

الطشت يضوي الضوء في القطرات المخلوطة بماء الورد من حلوق القلل.

مشاوير البلد عادة لا تجلب العطش، وفكرة الثواب بشربة الماء مسألة هينة، فيكفي للغريب أو لأحد من أهل البلد أن يميل على أول باب فيطلبها، لهذا فإن الكثير من المارة كانوا ينحنون على قللها، جبر الخواطر، والثواب على الله.

وكانت هي تتابع الشارب ممتنة، وتلمع عينها بنور البهجة وبعد أن ينتهي تقول: بالهنا والشفا.. تفضل يا خوي.. تفضل.

فلا يملك غير الدعاء لها، ويتركها في حال سبيلها، وتحاول مع النسوة الشاربات، فتدعوهن للجلوس إلى جوارها، في ظلة دارها، ولكنهن دوما على عجلة من أمرهن، فتضع الواحدة منهن القلة، وتقر إلى بيتها محملة بما اشترت من خضروات السوق.

أيام كثيرة انقضت، فقدت فيها القلل رونقها، وكلح لونها وبانت على أجسادها علامات الأيادي، ونشع في مسامها الريم الأخضر، وانقصفت رقاب البعض منها، وانشرمت حلوق البعض الآخر، ومضت فترات طويلة توزع القلل في

الطشت وهي جافة فارغة من الماء، والمرأة على عتبتها مكبة على كهولتها، تحت طرحة قذرة، كانت يوما تضيء الوجه ببياضها.

لم يلتفت أحد إلى اختفاء القلل، ولا اختفاء المرأة التي انغلق عليها بابها الخشبي القديم، وظن البعض أنها ربما سافرت إلى أولادها، أو أن أحدهم عاد إليها فأخذها لتعيش معه حتى يحين قضاء الله. ولابد نافذ.

وعلى غير توقع انفتح الباب، في اللحظة الفارقة بين الليل والنهار، وخرجت في ثياب مهلهلة قصيرة تمشي في الشارع حافية القدمين، حسيرة، قصت شعرها تماما فبدا رأسها صغيرا جدا، وتسيطر عليه رعشة لا إرادية، تذبذب سحنته، وتدفع حدقتي العينين للاهتزاز.

رأيناها تسير تحت الجدران تنظر إلى الأرض وتنحني على أكوام القمامة، تقلب فيها، وتخرج منها ما تجده مناسبا، فتجمعه فيما تبقى من هيئة الثوب، وترفع مقدمه فتبان أفخاذها ضامرة، وحين يكثر حملها من أشياء الأرض تطوي بقية الثوب، فتبرز سوءتها، ولا يملك الجالس أمامها غير أن يمسكها من يدها غاضاً بصره في حياء: تعالى يا حاجة..

ويدخلها دارها، ويغلق عليها الباب، وهو حين يحاول ذلك لا يستطيع الإفلات من قبضتها المخلبية، فهي تسحبه إلى الداخل: ادخل.. سأطبخ لك.. وعندي فراش نظيف. فيملص نفسه منها عنوة، ويعود وهو يضرب الكف بالكف صارخا.

فيمن حوله: يا إخوانا حد يبعت لأولادها.

وانغلق الباب هذه المرة، وطال غلقه، فارتاح الجيران، وتعشموا في أن تستعيد حالتها من سمت الوقار والمهابة، فمظهرها الأخير لا يسر عدواً ولا حبيبا، بل هو وصمة لكل من يعيش حولها، كيف تترك على هذا الحال! وكيف يمكن التصرف معها! لا أحد لديه الرغبة ولا الطاقة في أن يستضيفها في بيته حتى يظهر ولد من أولادها.

ولكنهم اضطروا لاقتحام الباب وتحطيم ضلفتيه حين انبعثت الرائحة ذات صباح صيفي حار، ووجدوها في حجرتها ممددة على ظهرها، وقد تحللت هلاهيل الثوب، ذلك أنها لم تحتمل انتفاخة البطن الذي تبعج إلى آخر طاقة العضل فيه.

الآن انحدر إلى الأرض التي زرعها أبي قصبا في سنى شبابه الأول. لماذا القصب وهو من زراعات الجنوب؟

لا أدري. لم أعرف أحدًا زرع القصب بعده، ربما بعد أن نظمت الزراعة وصار لها دورات امتنعت عليه أرض الدلتا.

رأيتها وهي مسيجة بسور من الحديد والسلك الشائك، نطل من حواجزه على أشجار المانجو والجوافة والبرتقال، تأخذ ماءها من قناة محفورة تحت الأرض، لها فتحات ضيقة موزعة على مسافات من الشارع، كانوا يحذروننا من السقوط فيها، وكنا نبص من الفتحة لنرى الماء الجاري، يسيل رقراقا وصافيا، نمد إليه اليد لتصنع موجات صغيرة، ونسقط فيه قرش السوق الذي نحصله من الطاحونة، فيستقر في القاع الرملي، وتراه العين تحت الماء السائل، ثم نعود لرفعه، نمسحه بذيل الجلباب، ويظل في القبضة العرقانة حتى ندفعه لصانع العسلية أو للبقال ليبيعنا كرملة "ندلر" أو بسكويت "إيكا".

وسمعنا عن حفيظة التي قتلها صاحب الحديقة حين تجرأت على النزول من سطح بيتها القريب، وضعت السلم النقالي في ظهر الجدار، في اللحظات الأخيرة من ساعات الفجر، وقبل بزوغ الشمس بقليل، فزوجها المريض قضى الليل بطوله، ينازع، ويخرج من فمه الخالي من الأسنان

أصواتا مبهمة، وحين جمعت أصابع يدها على أذنيها، ومالت على فمه لتصيخ السمع أتاها الصوت جليا: مانجه.. حبة مانجه.

وربتت على صدره بحنان مطمئنة إياه: والله لتكون عندك الصبحية. وجمعت بقايا قوتها في الجسد العجوز، وعقدت العزم على تلبية طلب الغالي: ربنا يسامحني.. الرجل ليفطس ونفسه فيها.

زحفت على درجات السلم الخشبي حتى وصلت نهايته، ثم نامت على بطنها لتسحبه إلى أعلى، وجرته على القش لتدليه بهدوء من الخلف حيث ظهر الدار المطل على الحديقة، وسارت خفية إلى أن عثرت على شجرة المانجو العالية، ومالت على الأرض لتجمع حجارة تعاونها في قذف الثمرات الناضجة، فأحدث ذلك جلبة سمعها صاحب الحديقة، وكان قد ترك قريته البعيدة، وأقام لنفسه خصاً صغيراً كي يرقب لصوص الفاكهة؛ لأنه لاحظ أن أشجاره تنهب بلا رحمة، وكان قد قرر بينه وبين نفسه ألا يترك من تقع عليه يده، صغيراً كان أو كبيراً، وحلف أنه سوف يصور قتيلاً في هذا البلد. بعدها، وحين يفلح في الإمساك بأحدهم فسيشفي غليل

صدره، ويرتاح، ثم يشرع في بيع هذه الأرض، ويعيش في قريته مبجلا، ولا ينزل هذا البلد الجائع أبدا.

في هذا الصباح، كان قد انتهى من صلاة الفجر حاضرا، ومكث في خصه، ينقل لقيمات صغيرة إلى فمه، وعندما سمع صوت انحدار السلم على الأرض، توقف عن المضغ، فسمع الأقدام تخوض في الحشائش الندية، ورأى الهيكل النحيل يميل على الأرض ويحدف الطوب بدأب، فقام وبيده عكازه المعقوف، يمشي بحذر، ويخفي جسده خلف كل جذع يلقاه، الرؤية لم تكن واضحة بعد، وبخار الماء يتقلب على سطح الأرض كأنه ماء يغلي، وعيناه الكليلتين لم تسعفاه على تحديد السارق، ولكنه حين وصل إلى أقرب جذع، صرخ بعزم قوته: أنت يا ولد..

فطبت حفيظة ساكتة على الأرض، فخيل إليه أن اللص يراوغ، ينام على بطنه ليزحف إليه فيتمكن من ساقيه، فكان لابد وأن يبادره بضربة تعجزه، فضربها بطيش في الجسد العجوز، صائبة في الحجر القريب الذي تزحزح عن مكانه – وكان أبدي الركود – مندفعا إلى الرأس الحسير، فأنهى.. نبضاته الواهنة، وكانت توهم صاحبته بالقيام.

في زمن لاحق ابتاع ابن حفيظة الأرض، وقسمها قطعاً، كل قطعة مؤهلة لتأسيس بيت، أبقى لنفسه قطعتين، أقام على إحداهما بيتا وعلى الأخرى حظيرة لماشيته، وظل أبوه – الذي عاش بعد رحيل زوجه – وحيداً في داره، كان سعيدا لنجاح ولده، كما كان حزينا، لأن مجلس المدينة أجبر ولده على ترك مساحة من الأرض تتسع لبناء بيت، هذه المساحة خصصت لشارع يتوسط الأرض، إذا أغلقت تبقى البيوت داخل الأرض، حارة سد.. لا منفذ لها.

وكان يأتي كل صباح إلى المقهى الذي فتح على رأس الشارع، يتخذ لنفسه كرسيا على الناصية تاركا جسده للشمس، ويحكي لمن يصادفه الجلوس على نفس الطاولة، أن مساحة الأرض التي نجلس عليها الآن هي ملك لنا، نهبتها الحكومة نهباً، إنني أستطيع – لو أردت – إجبار ولدي على غلقها، ولكن ماذا يفعل الآخرون؟ هؤلاء السكان الذي هبطوا علينا من كل النواحي، إنهم أغراب، وضيوف على بلدنا، وينبغي إكرامهم، ولكن – لو أردت – أستطيع أن أقيم سورا من الحجر المسلح، فنسد الشارع. ولا يهمنا حكومة ولا غير الحكومة. أقول لك إنها ملك خالص لنا.

كل صباح يأتي زاحفا من داره القريبة، مائلاً على عصاه، ليقتعد نفس الكرسي، في نفس البقعة، ولا يطلب لنفسه طلبا أبدا، فهو يعتقد أن المقهى قد أقيم على أرضه، ولا يحق لصاحبه مطالبته بشيء، مما سبب إزعاجاً شديداً للقهوجي، وكان يشير للمتحلقين حول الرجل بأصابعه الململمة إلى جانب صدغه، دلالة على ألا يتخذوا كلامه جدا، فالرجل – قد بلغ من العمر ما يدفعه إلى الخرف والعيش في أوهام لا تناسب أهل هذا الزمان، فكان يصهين عليه، ويفوت له الكثير من شخطاته وأوامره حتى فاض به ذات يوم، فنزل إليه من النصبة وواجهه: كفاية يا آبا.. صدعت دماغنا.

فلعن الرجل سنسفيل أجداد القهوجي، ولم يترك كلمة من قاموس المعايرة إلا وذكرها دون تردد، والناس تجمعت حول القهوجي: زي والدك.

– والدي سافل وقليل الأدب!!

واستطاع الكهل أن يرفع عصاه ليدفعها في بطن القهوجي مما سبب ألما شديدا، فجن جنونه، واندفع إليه ليرفعه عن الكرسي: لا أرى وجهك هنا أبدا...

- تطردني من ملكي يا عويل.

سحب القهوجي الكرسي إلى الداخل، وتوجه بحديثه إلى الناس مغضبا: كل واحد يروح لحاله.

بينما ظل الرجل في جلسته على الأرض، تحت حائط المقهى، يلعن الزمن الذي جعل مثل هذا الصايع يرفع عينه على أسياده.

ثم اعتاد المجيء كل صباح إلى نفس المكان، ويفرد حصيرا صغيرا، يأتي به تحت إبطه، ليتمدد عليه طول النهار، وكلما رأى أحدهم مقبلا من الشارع الرئيسي، أو من الشارع الفرعي الذي كان يوماً أرض القصب، ثم صار حديقة للفاكهة، وهو الآن حارة على صفيها بيوت وعمائر، يطلق الرجل هتافه ليؤكد للجميع: أنا قاعد في ملكي.. حد عنده مانع؟

ينفتح أمامي الطريق، فأرى الميدان، ميدان المحطة، يهبط من عل، بارتفاع يحسه القادم من جهة البوابة، يندفع دون إرادة منه نحو العمود الحالي الذي يتوسط الميدان.

بعد أن نقلت بيوت عمال الدريسة المشيدة بحجارة بيضاء كبيرة، إلى خارج البلد، ورفع السور الحديدي الملتف

حولها ليحميها من اصطدام السيارات، اتسع الميدان، وقسم المدخل إلى طريقين، وغرست في المنتصف نباتات زينة خضراء، جعل هذا العمود كقاعدة لتمثال منتظر.

وكنا نتساءل فيما بيننا هل في تاريخ بلدتنا من يستحق هذه القاعدة؟

لم نجد في تاريخها الخاص ابناً من أبنائها، أو حتى من أبناء القرى التابعة لها من هو جدير بها.

فظلت خالية بانتظار الشخص المجهول.

اتسع الميدان إذن، وتوارى عنه الكثير من معالمه القديمة، دكان (أبو الخير) للحلاقة، كانت له فراندة، لا تمل الجلوس عليها، يجلس الرجل الكبير على دكتها ليراقب الخلق، الرائح والغادي، المسافر والعائد من سفره، حركة القطارات القادمة من الجنوب أو العائدة من الشمال، إلى جواره يجلس ولده، لا يقوم حتى يصل الزبون، سواء من يريد الحلاقة أو من يحتاج العلاج، وفي هذه الحالة يربط أهل القرى مطاياهم في العمود القريب، ويدخلون مع الرجل الكبير غرفة على الناحية المواجهة للمحل، فيعطيهم الإبر أو يمس لهم عيونهم بالمراهم أو بالششم، أو يغير لهم على

الجروح، فيرفع الضمادات، ويضع القطن المغموس بالمكركروم أو بصبغة اليود.

حين رحل الرجل الكبير ومضى زمانه بقي ولده وحيدا قليل الحيلة فيما يختص بالعلاجات، لا يجيد غير الحلاقة، كما أن لافتات الأطباء انتشرت على الشرفات، وفي كل الأحياء.

وكان جالسا يوما على دكة أبيه، ورأى واحداً من أهل القرى يربط دابته في العمود، فقال لنفسه: أما زال هناك من لا يعرف برحيل أبي!!

ترك القروي المرأة العجوز فوق الحمارة، وتقدم منه..

- عدم المؤاخذة.. أمي تشكو من عينيها.

- ولكن..

- البركة فيك، أهلنا كلهم لا يشفون إلا على أياديكم.

واحتار ابن الحلاق، فالغرفة الصغيرة التي استعملها أبوه كعيادة خاصة به ضمت إلى ميراث أخيه، وشيد مكانها عمارة ذات طوابق، ولا يملك في يده ما يعالج به هذه القروية، والرجل لم يكف عن الدعاء له، واستجدائه في تخليص الأم العجوز من آلامها، فأهل قريته أجمعوا أن

لا علاج لها لدى الأطباء، علاجها هنا في دكان الحلاق، أكدت ذلك خبرتهم العريقة وممارستهم مع الأب الفقيد.

وأدخلهم ابن الحلاق دكانه، ثم سحب الموس خفية وخرج به إلى العمود الذي يرفع واجهة الفراندة. حك الموس في الكلس الأبيض، فانهال على الورقة الصغيرة التي أمسكها بين إصبعيه، طوى الموسي ثم أعاده إلى جيبه، ولف الورقة على هيئة حجاب.

- شوف يا أخ هذا الدواء تأخذ منه على قدر ملعقة الشاي وتذوبه في الماء جيدا ثلاث مرات في اليوم، وبالشفا إن شاء الله.

عاد الرجل إلى قريته، وعاد ابن الحلاق إلى دكته ومر يوم ويومان، وفي نفس الموعد، عاد إليه القروي، ولكنه – هذه المرة – جاء ممتطيا حماره، تتقدمه سلة كبيرة يغطيها الباشكير، رمى عليه السلام قبل أن ينزل عن مطيته، وقام ابن الحلاق يعاونه، فكاد الرجل يميل على يده ليقبلها.

- الحمد لله.

ذهل ابن الحلاق، وسأل بحذر.

- يعني الحاجة قامت بالسلامة؟

- في إيدك البركة يا ابن الناس المباركين.

وراح يفرغ السلة، فانطلق منها ذكر بط كبير فرد جناحيه العظيمين، ودخل الدكان مهللاً، ليثير زوبعة من الشعر والغبار، وهناك في آخر زاوية من الدكان نام على بطنه، كأن أحداً أوصاه بهذا مسبقاً.

لليل حياة خاصة في هذه البلدة، فهو لا يملك غير التسكع في شوارعها الترابية المدحرجة، المقاهي القريبة من المحطة تكتظ بالرجال ساعة أو ساعتين، ثم ما تلبث أن تفرغ عقب المسلسل اليومي، أما المقاهي المتناثرة في الشوارع الداخلية، فإن لها زبونها المستديم، يشرب الطلب أو الطلبين، ثم يؤوب إلى داره مبكرا، قد يلعب الدومنو أو الطاولة أو يدخن المعسل، ولكنه - في كل الأحوال - لا يطيل السهر.

المسافر العائد بقطار العاشرة مساء دوما يفجؤه السكون عند نزوله على رصيف المحطة، بينما أذناه تدويان بصخب المدن التي قدم منها، فالبلد هجعت جميعا، والمقاهي أغلقت أبوابها عدا هذا المقهى الذي يواجهني الآن.

أبوابه مفتوحة مباشرة على بوابة المحطة، وهو أول ما تقع عليه عين الغريب، كان يوما محلا لبيع النحاس، كنت

ترى صاحبه يقتعد كرسيا بالداخل، يقلب أوراق الصحيفة التي لا ينتهي منها أبدا، يمد وجهه بالنظارة كعب كوباية، ويظل يطالع سطرا سطرا، كما كنت تراه واقفاً في استقبال العربة الكارو المحملة بالرجال والنسوة والعيال الصغار. جاءوا لابتياع أواني العرس، صاخبين بالزغاريد، يدقون على طبلة كبيرة ثبتتها إحداهن على جنبها بينما تحلق الآخرون حول صبية لا يهمد بدنها من الرقص، يقف تاجر النحاس بعد أن يضع صحيفته جانبا، يستقبل زبائنه بوجه بشوش.

- ربنا يتمم بخير.

ويتقدم كبير القوم رافعا عباءته على كتفيه فيسلم عليه، ويتخذ لنفسه مقعدا إلى جوار المكتب المرتفع عن الأرض، وتشق أم العروس الزحام لتقتحم المحل، لتكون في مقدمة المشترين، وتتخير لابنتها ما يؤسس بيتا جديدا.

أميل إلى اليمين لأدخل العمارة الصغيرة التي صفت أدوارها صفا كأنها علبة الكبريت موضوعة على جنبها. قفزت فوق غطاء المجرور الذي فاحت رائحته في المدخل، وتهيأت لصعود درج طويل لا تقطعه غير بسطة وحيدة،

انحنت النسوة الجالسات على الدرجات، وأخفين أطفالهن الرضع، تحت نور أصفر شاحب، يؤكد المرض ولا ينفيه، أما النور الحليبي الواضح فكان ينبعث من أعلى، يتدفق من باب الشقة على وجوه الرجال الذين ردوا على تحيتي بهمة وحماس.

حين رآني التمرجي قام عن منضدته مرحبا، وبدل سحنة الرجل المهم الواقف بين رعاياه ليضع ملامح خنوع متكلف، غرس القلم أسفل الطاقية، وفرك كفيه محيياً.

- أهلا يا بيه.

وطرق الزجاج المضيء لباب غرفة الكشف، وأدخل رأسه لينبئ الطبيب بقدومي، ولمحت بطرف عيني الفخذ العارية للمرأة النائمة على منضدة الكشف، فعدت بظهري إلى الوراء.

- سأنتظر هنا حتى تنهي ما بيدك.

بعد فترة وجيزة خرجت المرأة من غرفة الكشف وهي تلقي نحوي نظرة بطرف عينها من تحت طرحة جمعتها على معظم وجهها بينما سار خلفها رجلها عاقدا حاجبيه في غضب كظيم.

تلقاني الطبيب في حضنه، وسحب لي كرسيا مبطنا بجلد أسود، ضغط على الزر، فاقتحم نور الحجرة المبهر رأس التمرجي، قال له الطبيب:

- لا تدخل أحدا الآن.. وأعمل اثنين شاي بسرعة.

- أنا لا أريد أن أعطلك عن عملك.

- يا سيدي.. نحن لا نراك إلا في...

- الكوارث.

- أظنهم أرسلوا ليك لتحضر الوالد.

- عرفت أنك تتابعه.

- ليس هناك مرض بالتحديد إنما هي الشيخوخة، كل شيء قد انهار.

- لا فائدة.

- يوم أو يومان بالكثير..

وأعدت الكرسي إلى مكانه، وتهيأت للخروج.

- بدري.

- خلص شغلك على أن تمر عليّ قبل عودتك للبيت.

- لازم.

رأيته خارجا من الركن المظلم ونور المقهى ينعكس على زجاج نظارته السميكة، هو نفسه بجرمه الضخم، يعتمر عمامة كبيرة يلتف شالها على طاقية من قماش أبيض. يتهدل على بدنه جلباب واسع الأكمام، رفع كفه القابضة على الجريدة، وتقدم مني وهو يجرجر حذاءه الجلدي الكبير، فزعت منه وكدت أعود إلى الباب، ولكن سحنته الوديعة أمحت الخوف عن قلبي، فلبثت في مكاني مشلول الحركة، مال على أذني وهو يطبطب بيده على ظهري: ألف سلامة للوالد.. قل له واحد صاحبك يسلم عليك.

واختفى الرجل من أمامي فجأة..

ولما استشعرت الدم يموج بشرايين جسمي بدأت أحرك قدمي في خطوات متقاربة، مذهولة، لولا دبيب الناس من حولي، وأصوات التليفزيون والمذياع ما صدقت أن الحياة تدب في كياني.

جزعت من دخولي الشارع الآخر الذي يعود بي إلى داري، ما إن استعدت شجاعتي، وسيطرت على رهبة المكان من حولي حتى انتفضت للواقف فوق مرتفع من الأرض،

تحركت عباءته السوداء، فبان منها بياض الجلباب، والعمة، وبوز البلغة.

هبط إلى الأرض متجها إليّ. وشعرت بكفه الباردة تدهمني، تنحنح ثم أخرج صوتا وقورا: إرادة الله فوق كل شيء، لقد عملت ما قدرني الله عليه، أعطيته الإبرة، وتركته هناك غافياً. ومس بأطراف أصابعه شاربه المضيء، وعاد إلى مكانه، وتلاشى في الباب المغلق لصالون الحلاقة.

إنهم يبعثون، جاءوا تحت جنح الليل، يلقون النظر على رجل منهم، شوارع البلد تمتلئ بهم، ولا فكاك منهم، يبدو أن أرواحهم المعلقة بحياة الأحبة هنا لا تكف عن الحومان في مواقع الحنين، هل استدعاهم؟ أم عادوا ليحتفوا بالتحاقه بهم؟... أدركت في هذه اللحظة أن أبي معهم، لم يعد بدنه متصلا بنا، استحال إلى روح، تقيم لفترة مؤقتة بيننا حتى يحين موعد الأوبة النهائية، بل أدركت أنه ربما يكون قد فارقنا الآن.. إنهم يتوزعون في الأركان، لمراقبة شيء ما، شيء تدركه أرواحهم، ولا علاقة لنا به، حثثت الخطى لعلي ألحق به، فأراه ويراني قبل أن تغمض عيناه على الظلمة الأبدية.

ووجدت صاحب الأرض التي كانت بستانا جالسا على عتبة بيت ولده، رفع رأسه نحوي، بعد أن أفاق من تأملاته، ثم نفض جسمه، فقام فارهاً، يرتدي جلبابا على اللحم مفتوح الطوق، ومفكوك أزرار الكمين، خلع طاقيته الخفيفة، وبدأ يعيد جملته الأثيرة: انتبه.. أنت تسير فوق أرضي. انحنى علي، فنظرت إلى أعلى، كان وجهه سقفا أخفى كل شيء، لم أر مساحة من السماء، ولا من الفضاء الواسع، وجهه الكهل فقط.

- سلم عليه.. وقل له لقد صارت أرض القصب التي سال عليها عرق شبابك ملكا لي.. وقل له أيضا لا تحزن على ما فاتك من علم الكُتاب، لولا هجرنا له ما صرنا من أصحاب الأطيان.

وتجاوزته وأنا لا أود أن أفلت الضوء الذي أراه بعيدا على ناصية الشارع، سرت على هداه حتى لا أتخبط في الجدران القريبة، لأني كنت أترنح كالسكران، وقدماي تسيران بي بحكم العادة، لا بسبب الإدراك الواعي بانحدارات الشارع، اقتربت من النور إلى حد الونس، وأنا أسمع لهاثهم

من خلفي، كانوا ينطلقون بآخر طاقة الشيخوخة في جسومهم ليلحقوا بي.

ورأيت باب الدار مفتوحا على آخره، والمقهى المقابل أدار المذياع على المرتل، وقبل أن أمرق إلى الداخل وقعت عيني على التركي في جلبابه الأبيض النظيف يخرج من البيت القديم ممسكا بيد المرأة التي ماتت وحيدة، ويسبقانني في الدخول.

سرت وراءهما حتى تلاشيا في زحام النائحات.

- ١٠ -

في ضحى هذا اليوم وصلت محطة مصر، بعد أن حادثتها تليفونيا وطلبت منها الانتظار على قطار الحادية عشر، وكانت بانتظاري، ركبنا الأتوبيس، حينئذ رأيتهم يسيرون حول قاعدة رمسيس الحجرية، كانوا صغارا جدا تحت قدمي التمثال الشامخ، يعبرون إلى جوار الفسقية، النافورة لم تكن تعمل، انحبست فيها غبطة الماء، كلهم في اتجاه واحد، يخبون في جلابيبهم التي ترتفع إلى ما فوق الكعبين، لهم وجوه شاحبة، رمادية، تزيدها قتامة تلك اللحى المرسلة، هيئات مختلفة من اللحى، منها الكثيف المتشابك،

والخفيف الشعر، المتناثر على الصدغين كعانة المراهق، بعضهم كان يصحب نسوة منقبات، يتبعن رجالهن في خنوع ورضا تحت خيمة من قماش، لها لون واحد، منزوع البهجة. ألوان تتدرج من الأسود إلى البني إلى الزيتي، لا ورد هناك، ولا زهر، كائنات مطموسة، عديمة الملامح، ونمطية إلى حد الملل، تندفع بهمة إلى الشارع الواسع. خارجة من كل الاتجاهات، إنهم يقبلون من بوابات المحطة، ومن كوبري شبرا، وشارع الجلاء، ومن جهة اليمين، يأتون جماعات من شوارع الفجالة القديمة.

والأتوبيس الذي نركبه في تلك الساعة من الظهيرة الخريفية يتحرك ببطء بين أرتال السيارات الأخرى، لا نرى نهاية للإشارة.

وهي إلى جواري تنفخ هواء القلق من شفاه رقيقة رسمها القلم ببراعة على شكل الوردة البلدي، وأنا بالقرب منها أستنشق ريحها ولا أجرؤ على بدء الحوار معها لتهدئة روعها.

كلما نظرنا أمامنا أو خلفنا أو في أي جهة عن اليمين أو الشمال لا تقع عيوننا إلا على سيارات تلفظ مواتيرها

الوقود النيء، ويسقط على أجسادها اللامعة شعاع واهن لشمس متوارية خلف كتل السحاب الأسود.

كانت أجسادهم تخترق الطرق المعقدة بين السيارات. منهم من يسير بمفرده غارقاً في الحقب التي يهفو إليها قلبه، مما يجعل سحنته مقلوبة على ملامح غضب كظيم، فهو يبدو كالغريب بين الآلات الضاجة التي تقلق طمأنينة اليوم وسلام الحلم بالعودة إلى الأمس. حيث لا يسمع غير الأصوات الأولية، أصوات من خلق الله ذاته، ولا دخل لعقل الإنسان بها. ومنهم من يسير متأبطا ذراع حليلته يتهامسان بكلام لا ينتمي لأحد غيرهما، وعين الرجل تشع بسعادة الثقة بما قد أتاه في ليلته، ها هو الآن بعد أن تطهر بماء الغسل وماء الوضوء يصحب حلاله نحو قضاء الفرض. جسدها الملفوف في الثوب الأسود ريان بروعة الارتواء والشبع.

ومنهم من يغدو في الطريق جماعة ذكورية كاملة تتدرج في الأعمار، الجد ثم الأب ثم الولد والحفيد، جميعهم يكبسون الطواقي البيضاء المخرمة، وجميعهم يرتدون الثياب البيضاء عليها، سويتر، جلدي، وتتدلى من تحت ذيولها سراويل بيضاء لها غلق على بز الكعب، يصحبون الحفيد

الغارق في بياض الطاقية والجلباب، نحت مصغر للعائلة، لا ينقصه سوى اللحية وإن بدا وجهه متجاوزا لطفولته، نجح فعل الأسلاف على تهيئة قسمات جادة وصارمة، مفارقة للعمر، وللحياة في سذاجة الأحلام الطفلية.

الأتوبيس توقف تماما قبل الدخول إلى أول الشارع، هنا يتكثف الزحام، فالكل يتدفق من تفريعات الميدان ليصب في شارع واحد.

الأجساد الفائحة بريح المسك والعنبر تموج كتلها المتلاحمة فوق الأرصفة وفي منتصف الشارع وأمام السيارات وخلفها وإلى جوانبها.

خرج من الباب الأمامي رجل طاعن في السن لحيته تسقط حتى انحناءة الكرش، له وجه غاضب، لا ينطق - حين تحدث - بوقار يليق بهيبته، يندفع الكلام من فمه المظلم ذي الشفايف الغليظة كدفعات رصاص، لا يرحم، صوت زاجر، آمر، يحمل في طياته تهديدا صريحا، وذاكرا بالنهاية المفجعة لكل حي.

قال: إنك ميت وإنهم ميتون.

وقال: إن العبد ليعالج كرب الموت، وسكرات الموت، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة.

سار بين الكراسي يرمي الكتاب على أفخاذ الراكبين، لا يفرق بين رجل وامرأة، أو شيخ وطفل مذكراً الناس بعذاب القبر والثعبان الأقرع والسلسلة التي طولها سبعين ذراعاً وأهوال القيامة وما سيحدث لأهل النار وما سيحظى به أهل الجنة.

استحالت أمامي الأجساد الحية إلى هياكل عظمية يرعى فيها دود أسود كريه، وحبيبتي التي أدخلتني حدائقها فأمتعت عيني بمشاهدة أزاهيرها، ونشق أنفي أريج عطرها الفواح رأيتها جمجمة مركبة على هيكل، ضاعت ألوان الثوب الجميل، وسقطت عنها نهودها، وتلاشى خصرها، واختفت أساورها وعقود جيدها. عدت بنظري حسيرا، فرأيتني على نفس الحال، نظرت إلى الخلف، إلى الأمام، كل الركاب صاروا عظاما في عظام. حتى البائع والسائق، والدود ظل يسعى على الأرض، وفوق الكراسي، وعلى حواف النوافذ، وعلى الأجساد البشرية السائرة في الشارع.

رأيتم جميعا هياكل عظمية تهرع في خرائب..

والبيوت التي عن يميني تمددت عليها خيوط العنكبوت..

ورأيت الفجالة قد انخسفت الأرض بها، فاختفت منازلها، لم يبق غير سبيل أولاد عنان، وصار مسجد الفتح أنقاضاً على شاطئ النهر الذي كان يسير يوما في نفس الموضع، ورأيت الباعة فوق الكوبري الخشب ينادون على الليمون الذي تفيض به ققفهم، وعلى آخر المدى كانت أرض الطبالة، بزرعها العشوائي، تسمق خلاله نخلة هنا أو شجرة هناك حتى بان لعيني ماء الخليج المصري، وعلى شاطئه الشرقي رأيت القاهرة، من البستان الكافوري حتى مآذن الأزهر وباب الفتوح المطل على صحراء الدراسة تبدو أمام أسواره – التي ترفع مئذنة الحاكم – شواهد قبور حديثة العمارة.

صخب الأتوبيس بصوت الفرامل المفاجئة فتناثرت عظامنا، واختلطت، أعقب ذلك صمت مهيب، فرأينا بائع الكتب يجمع أشلاءه، ويلملم صفحات كتابه وينزل إلى الأرض.

فالتحمت بالشاطئ جزيرة بدران التي كانت عائمة وسط ماء النيل، وعاد الفرع الشرقي إلى مكانه، وأزيلت الترعة الحلوة تدريجيا ليمتد على جسدها شارع نازلي، على جوانبه منازل تنتمي، عمارتها للقرن التاسع عشر، ويتفرع منه شارع كلوت بك بالبواكي العريقة وخط الترام الذاهب إلى العتبة، وتشكلت مباني محطة مصر، وضجت قطاراتها الراحلة إلى الدلتا والصعيد، وبعد فترة وجيزة، صار الشارع يحمل اسم رمسيس، فعاد إلى شكله الحالي، يقف على واجهته الجنوبية مسجد الفتح، وعلى بدايته الشمالية محطة المترو على الطراز الحديث، وتبدأ منه وتنتهي فيه كباري علوية تضج بالسيارات المسرعة.

استعدنا ملامحنا، واكتست الأجساد بلحمها الآدمي، وبأثوابها الملونة، وعاد العطر يحوم بأريجه، ورنوت إليها بعيني، فتلاقت النظرتان على الدهش وكأنما كل واحد يريد أن يقول للآخر: هل بعثت؟

قلت لها: إنني سعيد باستعادتك.

فدنت مني، ولامست كفها كفي، فاشتعل النبض، حتى سمعنا ضربات قلوبنا، وتأكدت لي الحياة، هذه أنفاسي في

صدري تتردد شهيقا وزفيرا، وأمسح قطرة عرق عن جبيني، وأشم رائحة البشر من حولي، رائحة الإنسان الحي، وأصواته، ضجيجه، قيامه، وقعوده، خوفه ورجاءه.

مد السائق يده إلى مذياع السيارة، فملأ صوت المغني المكان، كنا قد وصلنا بالقرب من كنيسة الأرمن، تطلعت إلى بنائها الفخيم، تطل من أسوارها العالية أشجار دسمة الخضرة، تصدح بين أوراقها عصافير مختبئة، رفعت عيني إلى أعلى لأمتع البصر بهندسة برجها الجميل، كان الجرس الكبير بين فتحات البرج صامتا تماما يتدلى كخصية الفرس المكتنزة.

بالقرب من المسجد الذي تجمعوا حوله اقتحمت آذاننا صرخات الميكرفون فوق المظلة الخضراء، وتأكد لي أنه نفس الصوت لبائع الكتب، كان يقول: أيها الناس لو تعلمون ما أنتم راءون بعد الموت ما أكلتم طعاما على شهوة ولا شربتم شرابا على شهوة، ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه، ولحرصتم على الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم.

خارج الأبواب وقف البعض منهم ينظم دخول الجماعات المحتشدة، ويصرخ في المارة دون مبرر، والبعض يرش من عطرهم روائح انبعثت أشباحا ووجوها لعفاريت من الجني أحاطت بنا من كل جانب.

عند فتحة الشارع الجانبي حيث الباب الذي تصعد منه النسوة المنقبات حانت للسائق الفرصة فوجد أمامه فراغاً يمكنه من المروق فداس بأقصى طاقته، قفز على إثرها الأتوبيس قفزة هائلة حتى خيل إلي أنه طار بجناحين فوق السيارات الواقفة، وانطلق في الشارع متجاوزاً كل الموانع، ولم يهتم بصفارة العسكري ولا بلعنات الملتحين، وبرغم الرعب الذي قبض على قلوبنا هتفنا مؤيدين لهذه القفزة الشجاعة.

وفتاتي صرخت من هول الاندفاعة، وانتفضت فجأة. لأجدها بكامل جسدها الحي لابدة في كياني الزاعق بدم الرغبة.

القسم الثاني

- ١ -

كانت شمس الصباح تبرق وراء أشجار العبل من الجهة الشرقية، يخطفنا وميضها المتتابع مع سرعة القطار، وحين تقل السرعة، تبدو بكامل دائرتها المنيرة هادئة بين السحب البيضاء الخريفية..

نقترب الآن من الجزيرة البيضاء.

* * *

وكنا قد غادرنا القاهرة وهي مهيأة للدخول إلى مخدعها، انخلعت أنا وفؤاد من شوارعها بينما أهلها يتعجلون الخطو للحاق بآخر الحافلات، يرفعون بأيديهم أكياسا وحقائب، ويضعون تحت إبطهم جريدة الغد، وكان الصبية من باعة الصحف ينتشرون على الأرصفة ومفارق الطرق يهتفون بالعناوين الرئيسية وجريمة الأمس.

الأيام الأخيرة من سبتمبر، والطقس الخريفي المعتدل يشجع على السفر في تلك الساعة المتأخرة، فلا هو بالقارص البرودة، ولا هو بالحار الخانق للأنفاس، وانتعشت صدورنا بالنسمة اللطيفة اللاهية حول رمسيس الواقف في ظلمة قاتمة محبوسا بين الكباري العلوية، ومعابر المشاة، وأضواء الأعمدة كانت قليلة وخافتة تشكل مع الأنوار المنبعثة من عربات الطعام بحيرات صغيرة من النور بين ظلمة شاملة.

القاهرة حزينة، تعيش زمن الخوف والتوجس منذ أن كشف السادات عن جنونه الكامن، وكشر عن أنيابه، بعد أن تشدق كثيرا بالديمقراطية، ورأى فيها مفتاحه السحري للدنيا الجديدة التي وعد بها. عقب عودته من الولايات المتحدة، وكرد فعل على أحداث الزاوية الحمراء التي فجرتها فتنة طائفية مشكوك في مدبريها، أصدر أوامره بالقبض على ألف وخمسمائة من خصومه السياسيين: زعماء معارضة، وكتاب، وشيوخ، وأساتذة جامعات، وطلبة. وأطلقت صحافته على هذا الفعل المتهور، "ثورة الخامس من سبتمبر".

اقتلعت من معمعة الحوار الصاخب مع الزملاء الذين بقوا في الخارج، ومن الانشغال بمتابعة أخبار المعتقلين،

وتخمين التوقعات لمستقبل غامض لكل من الحكم والمعارضة.

بعدما جاءني فؤاد من بلدتنا – في وقت متأخر من هذه الليلة – دخل عليَّ شقتي هادئا كأنما قدم لزيارة عابرة، وبعد شربنا الشاي مع أصدقاء المدينة انسحبوا إلى بيوتهم، يطوون في صدورهم رهبة الأيام القادمة، قال فؤاد بنبرة جاهد في أن تكون عادية: مررت على بيتكم عصر اليوم ووجدت الوالدة بعافية، أمرتني بالجلوس إلى جوارها على الفراش وكانت تتملى وجهي كأنها تراك.

تيقظت حواسي كلها، وتحايلت على نفسي حتى لا أبدو أني كشفت شيئا يخفيه بحرص خلف كلماته، وسقطت حواراتي مع الزملاء، وتوارى الاهتمام بأمور السياسة، وانتبهت لكوني ولدا ينتمي إلى بلدة بعيدة، لي فيها أم عجوز، تعاني المرض، بل سكرات الموت، ربما كان فؤاد من الدهاء أنه أخفى بقناع وجهه الإعلان عن احتضارها، وتواطأت معه في هذا الشأن، وكأنما حدث اتفاق سري بيني وبينه، عليك أن تجيد التخفي وراء سحنة الثبات ونقل الخبر المفجع بأداء

محايد، وعليَّ أن أتماسك، وألا أبدي لك أني عليم بما تسره نفسك.

ووفقت في أن أحيل اقتراحي بالذهاب إلى البلد في هذه الساعة بالذات إلى مجرد رحلة ليلية ممتعة، ولاقيت منه ترحيبا شديدا. كان هذا هو ما يريد بالضبط، لو كان الأمر عاديا لقال كيف تعيدني في الحال إلى البلد وأنا في زيارة لك، ألا ترى إجهاد السفر باديا على وجهي؟

ارتديت ملابسي على الفور، ونزلنا معا..

دخلنا المحطة، وفاجأنا عدد المسافرين الذين يتحركون تحت المظلة الحديدية الشاهقة في الساعات الأخيرة من اليوم، كانوا يرفعون الحقائب ويجرجرون أطفالا صغارا غلبهم النوم، وتتقدمهم أو تسير خلفهم نسوة سترن رءوسهن بإشاربات ملونة.

للمحطة غبطة لا تنقطع، فهي مكان اللقيا، وأول خطوة للرحيل، بين جدرانها المرتفعة، وتحت سقف زجاجها التقت قلوب، وافترقت قلوب، فهي حرم اللقاء والوداع.

حين أدخل من بابها أحس وكأنني على عتبة داري، ولرحيل القطارات ليلا متعة شجية، فأنت تؤدي فعلا فيه

إيثارة بالغة، الناس نيام وأنت وحدك المسافر، وبعودتك المفاجئة تسعد قلوبا لهفى للقاء.

سألنا عن القطارات المسافرة، فقالوا لنا: لا يوجد قطار يأخذك إلى بلدك مباشرة، يمكنك أن تركب الصحافة حتى بنها، ثم هناك تبدل مع آخر.

لا بأس...

هل أنستني متعة الرحلة الليلية ما أنا مقبل عليه؟

أنا أريد أن أسلو، وأحطم بالحركة سكون الحزن الباهظ، حاولت تأجيله، ودفعه إلى ركن من القلب، وكان يغافلني، فتتقد ناره، خافتة واهنة أول الأمر، ومع سرحات الفكر تتوهج الجذوة حتى يشيط الدم في عروقي، فأنفخ طارداً اللهيب، أرفع ناظري إلى عين فؤاد الثابتة على وجهي، ليدير وجهه إلى النافذة فلا يرى غير الظلام فوق الحقول، وأنوارا قليلة لقرى بعيدة نائمة، انقضضت عليه بسؤالي: ألم يزرها طبيب؟

- الحكاية ليست بحاجة إلى طبيب..

نزلنا بنها فوجدنا محطتها غافية تحت نور "النيون" الكثيف، يسقط وهاجا على أجساد القادمين من القاهرة، ثم

يخفت عند هبوطهم السلم متشبثين بالدرابزين خشية السقوط، وبرغم ذلك فهم يتعجلون العودة إلى الفراش الدافئ، ذلك أننا بدأنا نشعر بالبرودة، وانقلبت النسائم الخريفية إلى تيار هوائي لاسع، هربنا منه إلى غرفة الاستراحة، بعد أن سألنا المعاون عن قطارنا، فقال إنه يأتي الخامسة فجرا، نظرنا إلى ساعاتنا فوجدنا أننا بحاجة إلى الانتظار لمدة ساعتين.

لا بأس..

الليل هنا موحش، لا صوت له، ليتنا بقينا في محطة مصر، لنتغلب على الملل بمتابعة المسافرين، فوق كراسي "الكافيتريا" التي لا تغلق أبوابها.

رحت أقلب صفحات الجريدة الصباحية، فتمطى الحزن من جديد، وراح يتمدد في الصدر حتى كاد أن يمزقني، كيف الهروب منه؟

* * *

بعد رحيل الأب سمعنا منها كلمة يا حبيبي..

لم تقلها أبدا في حياته، وكنا حين تجمعنا لخطات الود العائلي، ويتباسط الوالدان معنا في الكلام عن حياتهما الغابرة، ويقص علينا الأب كيف تعرف عليها، وكيف طلبها

من أبيها، بعد عدد من اللقاءات المختلسة، ويسألها مبتسما: أليس ما أحكيه صحيحا يا فهيمة؟ تنكر ذلك وتقول بدلال: إنه يخلط الأمور..

هذا ما يخص زوجته الأولى.

فنسألها بطريقة مباشرة لم تتقبلها على الإطلاق: هل أحببته؟ كما أحبته هي فتشوح بيدها في الفراغ، ثم تضرب بها على صدرها: حب؟!! بلا قلة أدب.

وقد بدا لنا هذا الحب جليا بعد رحيله، كانت تتخبط في جنبات الدار كالضائعة، وتدخل إلى غرفته وحدها، لتمكث الساعات الطوال، وكان صوتها يأتينا من الداخل، فنقول: إنها تحادثه.

وتقضي أيامها كأنه معها، كل ما في الأمر أنه استحال إلى طيف لا يراه غيرها، توجه إليه حديثا لا ينقطع، وحين يأتي أحدنا فعلا لا يرضيها تتكلم إلى الكائن الطيفي الجالس إلى جوارها: شايف يا حاج.. يرضيك؟

أو تقول لا تفعل كذا، لأن أباك لا يوافق على هذا، فنستجيب إرضاء لها، وكنا لا نجرؤ على اقتحام عوالمها، فهكذا هي حتى مع أبيها وأمها اللذين رحلا منذ زمن بعيد

جدا، لم ينقطعا عنها، ولم يرتفعا بأبدانهما المجسدة عن حياتها، كل ليلة تقرأ لهما الفاتحة قبل النوم، بعد ذلك أضافت فاتحة جديدة للوالد الذي تغلّب على أحلامها، فصار هو الشخص الوحيد للأحلام الكثيرة المتنوعة، وتوارى – إلى بعيد – الأسلاف الأوائل، شحبت أطيافهم قليلا، واختلطوا بأحداث الراحل العزيز، فهو القادم الجديد إلى عوالم الموتى، وصاروا هم جزءا من حياته الجديدة، قال لهم، وقالوا له.

وكنا ندرك أن حياتنا لا تعنيها إلا فيما ندر، وربما ترانا امتدادا لأطيافها، حرصت على الاستمرار في طقوسه اليومية، ساعة الصحو، وموعد الوجبات، وأوان النوم والصلاة ولا تنسى أن تضيء له غرفته كل مساء وتترك المذياع ليتلو القرآن إلى ما شاء الله.

أما ملابسه فلم تفرط فيها، ولم توافق على أن يقوم أخي بارتدائها، كما لم توافق على إعطائها لأحد من المحتاجين، تختفي منا فجأة، فنبحث عنها، ثم نفتح عليها باب غرفته فنجدها أمام الدولاب، تطوي ملابسه للمرة الألف، صف لملابسه الداخلية البيضاء المزهوة، وصف لملابسه الصوفية الثمينة، وآخر لجلاليب الصيف الخفيفة.

وحين دخل الموسم، وجاءنا محصول الأرض، فرغ الرجل القمح في الحوش الخلفي، ووقفت هي متنمرة، تنظر إلينا بعداء لا نعهده فيها، ووجهت إلينا الخطاب: أظن كل واحد سيقول نصيبي!

وقال لها أخي: هذا شرع الله يا خالة.

– أتتمسح الآن بشرع الله يا كافر..

ثم وجهت خطابها للرجال: افرغوا الحب كله في الصوامع. ورفعت سبابتها أمام وجهها بوضع حاسم.

– من يريد شيئا فليأت إليَّ ويطلبه وأنا لن أتأخر.

وخضعنا لمشيئتها، هل كان من الممكن أن نفعل غير ذلك؟

تذمر أخي، وخرج من الدار غاضبا، فهو يعيش حياة مستقلة، وله زوجة وأولاد، وله كل الحق في المطالبة بنصيبه، وكان يود لو أنه يسيطر على الأمر جميعه، ولكنها لم تسمح له.

بعد ذلك لم يستطع الصمود طويلا، فسرعان ما تصادما، فقد عاد – أكثر من مرة – إلى المطالبة بحقه، وحاول إقناعها بحاجته، والحق أنها لم تبخل عليه، ولكنه أراد

أن يستقل بما قسم الله له، وكل مرة أزور فيها البلد، أجدني لا عمل لي غير سماع الشكايا من الجانبين هي تقول: الجاحد.. لا يسأل عني، يلبد هناك في مؤخرة زوجه، يمر الموسم فلا يدخل عليَّ بكيس فاكهة ولا حتى كيلو لحمة، إنه لا يفكر إلا في الاستيلاء على كل شيء.

وهو يقول: أمك تميل إلى السيطرة، إنها تحرمني حقي فيما ترك أبي.. وأنا الكبير، لقد صرت مسخرة بين الناس، ولا أعرف كيف أرضيها، إذا دخلت عليها بما يقدرني عليه ربي تقول ساخطة "ياما جاب الغراب.." وإذا دخلت عليها بيد فارغة تزمجر في وجهي "داخل إيد ورا وإيد قدام" وحين أطالبها بشيء تردني بعنف.

وأصلح بينهما إلى حين، ويطوي كل واحد ما في قلبه، ثم عرضت عليها أن تأتي معي، وكان في ظني أن هذه الزيارة ستخرجها مما هي فيه، وتدفعها إلى اليقين برحيل الأب، رفضت في البداية بشدة، كيف أترك داري نهبا للخطافين، وأشارت بيدها إلى ما يفيد بأنها تعني أخي، وأقول لها غلقي كل أبوابك، وأنا أؤكد لك إنها ستكون في أمان.

ووافقت أخيرا..

قضت المدة تترصد كل حركة وكل سكنة من سلوكي تجاهها، لأنها صارت حساسة جدا تجاه كل فعل يصدر عنا، وبالفعل فإن إرضاءها كان مستحيلا، إذا اضطرني موعد مع الزملاء للسهر إلى ساعة متأخرة من الليل أعود إليها فأجدها ساخطة جدا، وتقول متبرمة: من ترك داره أتقل مقداره.. جئت بي إلى هنا لتتركني بين الأربعة جدران؟

وإذا عرضت عليها بأن أصحبها في زيارة لحديقة الحيوان مثلا تقول: كان زمان.

أو أعرض عليها مشاهدة الفيلم في السينما تضحك مني قائلة: سيما. بلا هم.

فاعرض عليها أخيرا زيارة السيدة زينب أو الحسين فتقول: بعدين.. قرأت لهما الفاتحة من هنا.

ثم زارني يوما صديق، كنت لا أستطيع أن أوافيها بالمعلومات الكافية عنه، حين لاحقتني بالسؤال عن شخصه، كنت أجيب عن كل سؤال بإجابة ملفقة حتى لا تكشف سره، لا ينبغي أن أقول لها إنه لم يكمل تعليمه، لأنه مشغول بالعمل السياسي السري، وإنه من المفروض ألا تكشف عن اسمه

الحقيقي، فهو يعيش في مكان خفي، ويتردد عليّ من حين لآخر، يترك عندي بعض الأوراق أو ليحصل على بعضها.

ولما سألت عن عمله، قلت لها: مهندس.

- مهندس مبان.

- مهندس كهرباء.

- والنبي شكله لا يعطي أكثر من عامل في البلدية.

وحدث أن التيار الكهربائي انقطع عن الشقة بينما أنا وهو جالسين في حجرة الجلوس، فخرجت إليها لأطالبها بأن تشعل لنا لمبة الجاز، فقالته: ولم لمبة الجاز.. إن النور لم ينقطع

إلا في شقتنا قل لصاحبك مهندس الكهرباء يصلحه.

وطلبت منه ذلك، واتفقت معه على أن تكون هذه مجرد ترضية لها، والمسكين حاول الاعتذار، فقد أسرَّ إليّ: أنا لا أفهم في الكهرباء. قلت له: إن الأمر لا يحتاج أكثر من تركيب سلك شعرة في "الكوفريه". وأسند يده على كتفي، ووقف على الكرسي يبحث عن "الفيشة" وهي وقفت خلفنا ترفع لمبة الجاز، ففاجأها رأس صديقي الحليق، كان قد قص

شعره بلاطة، كتمت ضحكتها في صدرها، وأنا همست لها: عيب كدا.

وصديقنا كان يتابع الهمس بينما أصابعه ترتعش وهي ممسكة "بالفيشة" التي احتار ماذا يفعل بها؟ ونز العرق من وجهه، ولمع رأسه في النور القليل، فلم تتمالك أمي من إطلاق ضحكتها، ونظر إليها صديقي ظنا منه أنها كشفت قلة حيلته: فقال لها: أصلي مهندس إلكتروني.

فضجت ضحكتها في الردهة، ولم تقدر على الإمساك باللمبة فتركتها على المنضدة، وأغلقت على نفسها الغرفة، وتمكنا – بعد جهد – من إصلاح النور، وودعني الصديق، لأعود إليها مقتحما الغرفة بلا رحمة، وقلت لها صارخا: هل جئت بك إلى هنا لتتهكمي على أصدقائي. فصدمت، ولم تحر جوابا، وتركتها وحدها في ظلام الغرفة.

حين جاء موعد العشاء أعددت المائدة وحدي، وناديت عليها فلم ترد، طرقت عليها الباب، فلم أسمع لها جوابا، حاولت فتح الباب لم أستطع لأنها غلقت الترباس الداخلي، وتركتها لأنني لا أقدر أن أفعل أكثر من هذا، فقد عودتني

على أن تغضب لبعض الوقت، ثم تعود هي إلى مصالحتي، حتى لو كنت السبب.

في الصباح فتحت باب غرفتي بعد أن أيقظني رنين المنبه، وحين قطعت الردهة لدخول الحمام وجدتها أمام باب الشقة المفتوح جالسة على درجة البيت محلولة الشعر، وكان وجهها كله منتفخا، وبياض الحدقة انقلبت جميعه إلى اللون الأحمر، وهي تهرش بأصابع اليدين في الشعر الرمادي الداكن، قلت لها خجلا: صباح الخير.. فنظرت إلى الجهة الأخرى، ولم أسمع رد التحية، فاضطربت مشاعري، وأشفقت عليها، وددت لو أني أذهب إليها وأركع بين يديها طلبا للغفران، ولكن كيف الطريق إلى ذلك؟ لم أعتد هذا أبدا.

أكون فياضا بأحاسيس المحبة لها، ولا أقدر على إظهارها، وهي دوما الضعيفة تجاهي، ترمي بنفسها في أحضاني، وتموج بداخلي مشاعر متناقضة من الحنين والرفض، من الجمود والانسيال العاطفي الخرع.

الغريب إنني – في هذه المرة – لمحت في تعابير وجهها شيئا مغايرا، لن تلين هذه المرة، ولن تتقدم هي الخطوة الأولى التي عودتني عليها. إنها أهملتني تماما.

انقطعت في يوم وليلة كل عواطفها تجاهي، استشعرت ذلك، وخفت منه للغاية، ولم أجد وسيلة للخروج من موقفي الصعب، غير التلهي بارتداء ملابسي، ولم أفكر في إعداد لقمة الإفطار، كما أنني لم أجدها وقد أعدت ذلك من تلقاء نفسها، كما عودتني منذ قدومها.

وخرجت من الغرفة مرتديا ملابس العمل فوجدتها أمامي تمسكني بقبضة خالية من الحنان، وفي اللحظة التي أردت الاعتذار فاجأتني:

– عد بي إلى داري.. لولا أنه جاءني بالأمس وقال أتغضبين منه.. إنه حبيبك الذي تركتي بلدك ودارك من أجله، طلب مني أن أسامحك، ويحزنني أنني لأول مرة أخالف له أمرا.. لن أسامحك.

وعدت بها إلى دارها لتعيش وحيدة؛ لأنها منعت أخي من الدخول إليها، ولكنها لم تمانع في أن أزورها، كما لم تمانع في تبادل الحديث معي في حياء، أفزعني، وأدهشتني قدرتها على اصطناعه، في كل زيارة إليها تسقط الحاجز قليلا بيننا، تعمل كل ما لا تؤاخذ عليه كأم، ولكن هذا الشيء الغامض الذي كان يربطنا والذي لا يمكن التعبير عنه بكلام،

هذه الصلة من المحبة والأمومة، سقطت تماما، وارتضت العيش في غلالتها الشفافة جدا، والقوية جدا، التي يستحيل مع كل جهد مبذول اقتحامها.

طويت سري في نفسي، فهو كالإثم الحرام الذي لا يبوح به المرء لأحد قط، أخشى ما أخشاه أن تموت قبل أن تغفر لي.

يا ويلي لو حدث ما تتوقعه نفسي.

لقد عافرت مع المرض، وأنا متأكد أنهم سألوها في أن يرسلوا إليَّ لأكون إلى جوارها، ويقيني أنها رفضت تماما، وقالت: تحرموا عليّ لو أخبرتموه بمرضي. لو كان يشعر بأمه حقا لجاء من تلقاء نفسه، ولكنه جاحد، وقلبه ميت.

* * *

فزعت على صوت القطار القادم من الجنوب، فأيقظت فؤاد الذي تمدد على الكرسي الخشبي الطويل، وطويت الجريدة التي لم أطالع فيها سطرا.

تخيرنا إحدى العربات لندخل من بابها، كان عدد الركاب القليل يتوزع على الكراسي، ينكمشون في ملابس شتوية ثقيلة، ومنهم من راح في نوم عميق، لا يوقظه وقوف

القطار، ومنهم من جلس متيقظا ينصت إلى حوار الآخر الذي ينطلق الكلام من فمه مع دفعات البخار، والتحقنا بهم، ليتحرك بنا القطار الذي سيصل البلد بعد ساعتين، ليكون هو نفسه قطار السابعة.

* * *

صفارته لم تزل تدوي في أذني منذ ذلك الشتاء البعيد.. كان يقف في المحطة، والمطر يهطل، وتتساقط حبات منه على عتبة الباب، وكنت أنا بالداخل، بعد أن انتهيت من تناول إفطاري، أقف بين يدي أمي تضبط على بدني الصغير المعطف الأسود الخشن، ابتاعته لي من الرجل الذي يعلق المعاطف على سور السوق الحديد، وطوت لي الطاقية على هيئة كيس، وأدخلتها في رأسي حتى غطت أذني، وطبقت أصابعي الباردة الأطراف على "جزء عم" وقالت لي: لا تجعل أحدا من الأولاد يخطفه منك.. واحذر أن يسقط في الطين.

واستدارت إلى أخي فؤاد لتقول له: توكلوا على الله.

وظلت لمدة تلوح لنا بيدها وهي واقفة على الباب بينما أنا وأخي نخوض في الوحل، حتى خرجنا إلى الطريق المسفلت.

رأيت زحام التلاميذ والمسافرين وهم يهرعون إلى المحطة ليلحقوا بقطار السابعة، وقلت في نفسي: انتهت أيام اللعب، ولم يعد لي نصيب في التسكع على المحطة للشعبطة في هذا القطار أو في غيره من القطارات.

ومررنا على مقاه كثيرة، وشممت رائحة الريحان الذي تمتد أغصانه خارج أسوار هندسة الري، وسمعت صفير قطار الدلتا يأتينا واهنا من وراء السور العالي للسكة الحديد الذي يطل من أعلاه الدور الثاني لبيت ناظر المحطة، المحاط بأشجار الكافور السامقة، يبدأ قيامه من بلدتنا عند باب حديقة الخواجة ديمتري، ثم ترتفع قضبانه فوق تلال من الرمل الذي يبرز وسط الأرض السوداء، فتسير به هذه التلال حتى النهر، وهناك يعبر كوبري صغير له فلنكات خشبية سميكة ترى من خلالها الماء.

قال لي أخي فؤاد: غداؤك في الحقيبة، ولا طعام إلا في الفسحة. كان الأولاد يتوزعون أسفل سور هندسة الري،

وعلى عتبات المسجد، ويتكدسون في بقع الشمس الشحيحة على باب جمعية تحفيظ القرآن، تركني أخي، وقبعت وحدي في زاوية، أتابع رعشة بدني المحموم، وأرقب السيارات تبدو فجأة أمامي في المساحة الخالية من الشبورة.

حين سمعت الجرس دخلت في زحام الأولاد، وسرت في جمعهم لننتظم في صفوف، ورأيت رجلا كبيرا له كرش يدخل وسط الزحام يهز بين يديه جلدة سميكة، وعرفت أنه الشيخ الكبير، وخرج شيوخ آخرون يرتدون الجلابيب الفضفاضة وعلى رءوسهم طرابيش حمراء، راحوا يشخطون في الأولاد، ويجمعونهم في أرض الطابور.

في منتصف النهار خرجت من مكان الدرس برأس دائخ وعين زائغة، تتابع علينا الشيوخ، واحد يطلب منا القراءة بصوت جماعي موحد "قل هو الله أحد.. الله الصمد". و"قل أعوذ برب الناس.. ملك الناس.. إله الناس".

ونلت ضربة على ظهري لأني لا أهتز مثل باقي الأولاد، ورأيت أمي ترفع يده عني وتصرخ في وجهه: شلت يدك.

وحين دخل آخر، وطلب أن نعد من واحد لعشرة في إيقاع منتظم، وبصوت عالٍ، رأيت وجهها الباسم في النافذة يحضني على الاستجابة للشيخ.

سرت في الطرقة الممتدة بين الفصول أبحث عن خلوة، والأولاد ظلوا يخبطون كتفي، ويدفعونني من وراء ومن أمام، وهم زائطون بساعة اللهو، وأن ظللت أبحث عن خلوتي حتى وجدت مكانا فارغاً مدقوقاً على أحد جدرانه جرس كبير، تتدلى من يد له سلسلة طويلة، جعلت أثب إليها، وأثب، ولا تلمسها يدي أبدا، ونالني الإجهاد فقعدت على البلاط، ورأيت النمل يسعى في صفوف أسفل الجدار فتتبعته ولم أجد نهاية لصفوفه، فأعدت الكرة، أبحث عن بدايته ولم أجد له بداية، فاخترت مكانا في المنتصف، ومددت إصبعي بحذر، وبدأت أفرك هذه الحشرات الصغيرة حتى اختلت صفوفها، واضطربت، وراحت تدور حول نفسها، في حيرة، كمحاولة أخيرة لاستعادة الصف.

ثم انتهيت إلى اليد التي رفعتني من الكتف، وقادتني أمامها، لتعيدني مرة أخرى إلى غرفة الدرس.

* * *

الآن أدخل الجزيرة البيضاء.

سبقني فؤاد إلى النزول، والتحمنا بزحام الهابطين والطالعين، نفس الزحام، وإن كان بوجوه مغايرة، تلاميذ يسافرون غير تلاميذ الأمس، ومعلمون يهبطون غير معلمي الأمس.

الحالة ذاتها بأناس آخرين..

قلت له: عد أنت إلى بيتك... إنك لم تنم منذ البارحة.

- سآتي معك.

- لا داعي.

واستجاب لي، قطع الشريطين إلى الجهة الأخرى من المحطة، ونزلت الدرجات القليلة لأستقبل الميدان الذي فتحت أبواب محلاته لتستقبل شمس الصباح المتوارية خلف السحب البيضاء الخفيفة.

بوابة المحطة المغلقة حجزت عربات الكارو المحملة بالبضائع والسيارات التي تنقل المسافرين وأولاد وبنات المدارس في أزيائهم المختلفة، مرايل من تيل "نادية" سمنية اللون، ومرايل كحلي لبنات الإعدادي، وأخرى رمادية لبنات

الثانوي، وحمير وجاموس وأبقار متلهفة جميعا للغدو إلى الحقول لتحظى بوجبة الإفطار، ودفء الشمس.

دخلت الشارع الجانبي، فكان عدد التلاميذ أقل، وكانوا يهمهمون بكلام مبهم، والبيوت كانت مغلقة الأبواب، أما النوافذ فقد فتحت لتجدد هواء النوم، كنت أرى بين باب وآخر امرأة تميل على الأرض لتكنس أمام بيتها، عندما أقترب منها تنقطع عن عملها لتقف والمكنسة بيدها، تتأملني والحيرة تحوم على وجهها، ولا تدري ما تقول.

وصلت نهاية الشارع، وفي اللحظة التي سأنحرف فيها إلى بيتنا، ظهر فؤاد فجأة. وأمسك بيدي، لم يقل شيئا، ولم أجبه بشيء، فهناك على جدارنا ركنت المغسلة، وإلى جوارها النعش الخشبي ذي السيقان الطويلة، وأمام الباب بالضبط، وفوق الأرض النظيفة المرشوش على ترابها قطرات خفيفة من الماء، صفت الكراسي التي جلس عليها رجال ينصتون لصوت المرتل المنطلق من فتحة الباب الموارب، ومن ثنايا النوافذ المغلقة.

* * *

- ٢ -

أدخلوني إليك، فقد رأوا أنه من الواجب أن ألقي نظرة لأني الوحيد الذي لم يحضر لحظاتك الأخيرة، وشملتني الحيرة فأنا لا أدري ما أفعل، غريب أن تتجمد الدموع في عيني، لم أبك بعد، ويبدو أني لن أبكي أبدا، هل حقا فاجأني رحيلك؟

لا أجيد، بل لا أريد إبداء المبالغة في مشاعري، ربما لعنني الآخرون، لأنهم اعتادوا التهويل في إظهار فجيعتهم، وأنا أزعم، بل متيقن أن أحدا من الساعين حولي لا يحمل حزنا بحجم حزني الخاص.

قلة الحيلة، والشلل التام، هما ما أستسلم لهما في الأمر الجلل. أنت جربت هذا معي، وعودتني على الاندفاع العاطفي نحوي، ولا أملك غير التلقي في جمود.

هل عرفت يوماً أني أذوب فيك حباً؟ أشك.

مدت واحدة من الجالسات حولك يدها لترفع الغطاء عن وجهك، وقالت: حاذر الدموع حتى لا تسقط على وجهها.

دموع الأحياء قطرات من اللهيب على وجوه الموتى.. هكذا قالوا.. ولكن لا دموع، مبرر معقول، سيقولون حافظ على دمعه حتى لا يصيب وجه الأم، ورأيت ملامح باهتة لبسمة ساخرة، كأنك أنت بالذات أدرى الحاضرين بدخيلة نفسي، كان رأسك دون غطاء، فانساب على الجهتين شعرك الرمادي، لتتضح الفرقة الوسطانية، هذا الخط الذي كان يبدأ معه مسيرة المشط، كنت إذا خرجت من الحمام مبلولة الشعر تجلسين القرفصاء في ركن من الصالة، وتسحبين المشط الخشب من منتصف الرأس، فينثر الماء.

لم تزل في أنفي رائحة اختمار فروة الرأس بماء الحموم، ورائحة الصابون الأبيض مخلوطة بروائح الثوب المغسول، هذه هي رائحة طهارتك.

ولكن حين ملت لأقبل جبهتك لم تطرق أنفي غير رائحة الأدوية لم أرهب الموت الذي تغلب عليك في الساعات الأخيرة من نهار الأمس. لم أجزع له كما كان يرعبني حين كنت تصطنعينه في صغري، في بعض ساعات لهوك معي، تفاجئنني بهذه اللعبة.. أنظر إنني سأموت الآن.. وتسقطين رأسك على الوسادة، وتغمضين العينين، وتتجمد أطرافك.

وبرغم رعبي الشديد فإنني لا أبدي شيئا من الخوف، أكتفي بأن أرفع جفنيك وأردد بهدوء.. أمي.. قومي. ثم أترك الغرفة، وأسمعك تقولين متحسرة: قلبك ميت.

ظلمتني بهذا الحكم أكثر من مرة، لأنك لم تدخلي معي غطائي الليلي، ولم تشاهدي يوما عزلتي التي أعيش فيها موتك، وأبكي حتى ينتفض بدني، لأني – حقيقة – أخشى هذا اليوم جدا.

وها قد جاء، وأنا أقف أمام جثمانك، فلا يسعفني الدمع، وأكتفي بأن أجلس على الكرسي. أتأمل وجوه العجائز المعددات، هن صويحباتك. هذه المرأة أذكرها، كم من مرة صحبتني إلى بيتها، كنت تعدين الزيارة، وتقضين الأسبوع في الخبيز وصنع الفطائر. وصواني الأرز، وتجمعين اللبن في الإبريق، والأرز في القفة، ثم تحضرين السيارة المخصوص، من الباب للباب، فتقوم بنا من أمام دارنا إلى بيت صديقتك في المدينة.

هناك حيث شارعها المغطى بأحجار سوداء، ونصعد سلما ضيقا ومظلما، لنجدها على باب الشقة بملابس بيتية

خفيفة تظهر لحمها المتهدل، الأذرع والأكتاف والصدر الواسع المكشوف.

والأحضان والقبلات والحديث حول صينية القهوة، رفيقة صباك هي، كما حكيت بإعجاب عن قناعتي والتزامي في بيوت المضيفين، فلا تكالب على طعام، "وإنما عفة نفس يحسد عليها" وسمعتك تقصين على أبي كيف أنني نمت بينما البيضة التي أعطتني إياها صديقتك في يدي.

وها أنت تتقدمين وأنا أسير خلفك رافعا حقيبة المدرسة الثقيلة، كنت في ثوبك "الشعاري" الأسود والبرقع بالقصبة الذهبية على وجهك، وكنت قد قررت حسم الموضوع؛ لأني شكوت أكثر من مرة من ابنة الناظرة التي تتعقبني، ولا تكف عن إيذائي. بسبب تفوقي عليها، فهي تستخدم سلطاتها كابنة ناظرة في ضربي أو ركلي من الخلف أو صفعي على القفا، وبالأمس ألقت صندوق القمامة على رأسي.

ودخلت معي المدرسة، واقتحمت غرفة الناظرة مباشرة، وتحدثت معها بشجاعة، هذا ولدي وهو أول فصله، كيف تسمحوا بإهانته، ما يمر يوم إلا ويشكو من ابنتك مر الشكوى، جئت لأطلب ملفه لأني سأنقله إلى مدرسة أخرى،

تحترم قدراته، وأعجب المدرسون بقوة منطقك، ولم يرد أحد طلبك، ولم تخرجي إلا والملف في يدك، وأنا في اليد الأخرى.

أنا معك مرة أخرى، يدي في يدك، نتجه إلى السوق دخلنا بين كتل النسوة المزدحمات على فرش البائعين الذين يقتعدون جانبي الشارع، وتدخل العربة الكارو المحملة بالبطاطس فتفرق بين الكتل لتشق لنفسها طريقا، ونمت أنا على ظهرك من الخلف، ونسيت أني تركت ساقي اليمنى ممددة على آخرها، وداستها العجلة الحديدية، وحين سمعت صوت تكسر العظام، أدركت ما حدث، ضربتي صدرك بعنف: ضنا أمك.

سقطت في الغيبوبة، وتركتني بين أجساد النسوة المائلات عليَّ، لتلحقي بالرجل، وتجمعي قبة جلبابه بين قبضتك، والقبضة الأخرى أمسكت بحذائك، على رأسه، حتى بكى الرجل، وبكيت معه، فقد صعب عليك استسلامه، وعدم مواجهتك، أو ادعاءه البراءة.

لا نهاية للذاكرة..

فماذا أذكر؟ وماذا أدع؟ أيام كثيرة سوف تأتي، وسأكون بدونك، ولن يتبقى لدي غير ما عشته معك.

ولم أتمالك نفسي في النهاية، ووجدتني أميل عليك دون إرادة مني لأهتف في أذنك.. سامحيني.

ولدهشتي وجدت وجهك يرتاح، وكدت أرى المقلتين تتحركان أسفل الجفنين المغلقين، ولكنهم شدوني من الخلف عنوة، وكنت لم أزل ممسكا بيدك الباردة التي وضعت في وريدها الميت جماع القلب، وحاجته للغفران.

* * *

- ٣ -

في اليوم التالي لدفنها لم أحتمل وحدتي، استيقظت من النوم بعد أن أخذت كفايتي منه، كنت بحاجة شديدة إليه، لأني قضيت يوما طويلا ما بين السير في الجنازة، والوقوف في المضيفة، فاستقبالنا للمعزين لم ينته حتى ساعة متأخرة من الليل.

عدت وأخي إلى البيت وكانت زوجه أعادت كل شيء في مكانه، نصبت السرير الذي كان قد رفع لإدخال المغسلة، وأعادت غرفتي إلى وضعها السابق، كأن شيئا لم يحدث،

البيت كما هو بفرشه وأثاثه، لم يتبدل شيء، غير أنه ازداد اتساعا ووحشة بعد أن فرغ من ساكنيه، هل فرغ حقا؟

إنني أحسهم من حولي، صار وجودهم من نوع آخر، وجود طيفي، غامض وملتبس، غير أنه أكثر كثافة وحيوية.

عزم عليَّ أخي بقضاء الليلة في بيته، فأبيت، وأجبته مستنكرا.

- هل نغلق الدار إلى الأبد؟

إنني سأتعامل في وجودي بها كأنهم أحياء بيننا.

قال: إني أخاف عليك من وحشة الليل.

- لا عليك.

وطرحني الإجهاد أرضا، لم يعطني الفرصة في تأمل الحال الذي أنا عليه، نمت باستغراق حتى أفقت قرب الفجر على الأصوات الهامسة في حجرة الأب، أنصت لفترة، وتعرفت على صوتهما، فأعادتني الأصوات إلى ألفة الزمن الغابر، أيام كنت أنام طفلا على ونسهما، وهما يلتفان حول الموقد وبراد الشاي، وغلبني النوم مرة أخرى، حتى أفقت على نور الضحى.

يا إلهي.. ماذا أفعل بوحدتي؟

وأنقذتني طرقات الباب، فوجدت أخي فؤاد أمامي.

– رحت في سابع نومه والبلد مقلوبة.

– ٤ –

خرجنا معا إلى ميدان المحطة، فرأينا الزينات والأعلام، واللافتات معلقة في كل مكان، علم كبير انتصب عموده الخشبي فوق قاعدة التمثال الفارغة، ولافتات ترفع أسماء أعيان البلد، وأعضاء الحزب الوطني، وأعضاء مجلس الشعب والمجلس المحلي مفرودة بطولها فوق العمارة التي أقيمت مكان عيادة الحلاق القديمة وفوق العمارة المصفوفة أدوارها كعلبة الكبريت، وعلى شرفة الطبيب، وعلى واجهة مقهى ابن تاجر النحاس، واكتظت النوافذ والشرفات بالنسوة والبنات والأولاد الصغار، وتكدست الأسطح القريبة والمواجهة للمحطة بنسوة جئن من الأحياء البعيدة.

وعلقت مكبرات الصوت فوق أعمدة النور وأعلى "البلوك" وزينت البوابة الحديدية بأوراق ملونة، كذلك واجهة "البلوك" المقابلة لشريط القطار، والتفت لافتات أخرى فوق مظلات المحطة، وعلقت أعلام صغيرة على مباني المحطة

وعلى جدران الزاوية المشيدة فوق الرصيف، واستخدم مكبر الصوت الخاص بزاوية المحطة في إذاعة الأغاني الوطنية التي يقطعها صوت غليظ يبدأ بنفخة شديدة ثم يعدد التهاني بقدوم بطل الحرب والسلام، وكرر آية "إن جنحوا للسلم" مائة مرة على ظن أنها الأليق بالمكان الذي يتحدث منه إلى الناس، وفي كل الأحوال فإن الصوت القادم "من جهة الزاوية – برغم غلظته – كان أكثر رزانة ووقارا من الأصوات التي تصخب بها مكبرات الصوت الأخرى، فقد استولى جماعة من صبية موقف السيارات على "مايك" مكبر الصوت المرفوع أمام المقهى، وراحوا يرقصون على إيقاعات طبلة غشيمة مرتخية الجلد فأخرجت صوتا مخنثا هو مزيج من حنجرة الرجل الجهوري وليونة المرأة المبتذلة، كما أن أحدهم كان يدق على رق له شخاليل يختلط رنينها بصوت الصاجات، وكانوا يرددون كل ما يخطر على بالهم من أغان، بدءا من "ودع هواك" مرورا بـــ"حبه فوق.. حبه تحت.." وانتهاء بـــ"بدنا نتجوز ع العيد" وبين كل أغنية وأخرى يتقدم ولد من العاملين على موقف السيارات يردد

خليطا من الشعارات "بالروح بالدم نفديك يا سادات.." "عاش بطل الحرية" "عاش بطل الاشتراكية، والرجعية".

"المعلم حزيقة يحي بطل السلام" "الأسطى خنيفة يحيي بطل السلام" وحين لمح المأمور مقبلا نحوه وهو يمتطي حصانه البني الغامق هتف له وهو لا يدري أنه جاء لإسكاته "عاش سعادة المأمور بطل السلام..".

- بطل يا ابن القحبة.

فألقى "المايك" على الأرض، وجروا جميعا في اتجاهات مختلفة دون أن يكفوا عن الطبل والدق على الرق، بل إن الولد الذي كان ممسكا بالصاجات هز له أردافه من الخلف وهو يتراقص، فغمز المأمور قدمه في بطن الحصان لينقض عليه، فسقط الولد على ظهره، وارتفعت ساقاه إلى أعلى وهو يرفص صارخا: أنا في عرضك يا بيه.

عاد المأمور مبتسما بعد أن وقعت عيناه على عورة الولد وقال لعساكره الذين شاركوه ابتسامة: ابن القحبة ماشي من غير لباس.

وقفنا نتأمل الرصيفين النظيفين، كانا قد أخليا من أهالي البلد، وأحيطا بكردون من عساكر المركز المدكوكة أبدانهم

في الزي الميري الخشن، فرغا الرصيفان ليقف عليهما المسئولون فقط، رئيس مجلس المدينة، ورجال الحزب، وأعضاء المجلس المحلي، وفرقة المزمار البلدي بجلابيبهم السابغة التي سقطت أكمامها إلى الزندين وهم يسددون المزامير في عين الشمس التي غشت عيونهم، ويرفعون أقدامهم إلى أعلى على وقع الطبل الكبير. لألحانهم عراقة وفرحة تستحلبها الأذن وتطرب لها، وتعيد للنفس الحزينة ساعات البهجة المفتقدة، فهل لك نصيب من هذه البهجة الطفلية؟

أنت الذي ودعت أمك بالأمس. هل يهتز القلب للحن الساذج بينما أصدقاء لك يقضون أيامهم – منذ عشرين يوما – في زنازين المعتقل؟

ها هو ذاهب إلى المنصورة بغرض استعراض القوة، وليثبت للعالم أنه يعيش في أمان بين شعبه برغم ضربه لكل وجوه المعارضة.

عرفنا – بعد ذلك – أن صهره عثمان نصحه بإلغاء هذه الزيارة ورفض النصيحة، وقال: كله بأمر الله. وأضاف: أنا لا أخاف على نفسي وإنما على مصير من حولي!

وعرفنا أن أجهزة الأمن قد كشفت محاولة لاغتياله، كانت الخطة أن يندس المنفذون وسط الجماهير المحتشدة، ثم يتحين هؤلاء الفرصة المناسبة لسحب أسلحتهم وإطلاق الرصاص عليه عند نزوله في محطة المنصورة.

قبضت الداخلية على العناصر التي أعدت للمحاولة، وتوصلت إلى الشقة التي كانت تتم فيها اللقاءات، وعثرت على أسلحة وذخائر ولكنها لم تفلح في القبض على قائد هذه المجموعة الذي فر هاربا. مما سبب ذعرا لدى رئيس الدولة، جعله أكثر استنفاراً وتحديا، وسمعه الناس وهو يخطب في المنصورة، ودهشوا لجملته "أنا عارفه وهو سامعني دلوقتي" وتساءلوا: من يعني؟

في زمن آخر كنا نرى نفس الخروج، وإن كان له جلاله وعظمته، ويا له من جلال وعظمة. البيوت تفرغ من ساكنيها، لا أحد يبقى بين الجدران، الجميع بمن فيهم العجائز اللائي يرفعن على الحمير، والأطفال الرضع على صدور الأمهات، والصبية الأكبر سنا يحملون على الأكتاف، الكل يزحف نحو المحطة، وعلى امتداد الشريط الحديدي يقفون متلهفين ومرددين مع حليم الأغاني الوطنية التي تشعل

وجدانهم "يا جمال يا حبيب الملايين" و"كنا حنبني وادي احنا بنينا السد العالي"، ويهتفون مع صوت عبد الوهاب الجليل "دقت ساعة العمل الثوري..".

ويرقصون على إيقاعات أم كلثوم حين تهلل "طوف وشوف" ثم يصخبون هم بجملتهم المرتجلة "يا محني ديل العصفورة وجمال رايح المنصورة" كانوا لا يكتفون بالترقب لطريق القطار، بل يزحفون إلى الأرصفة، ليتمكنوا من المشاهدة القريبة.

رفعتني أمي على كتفها، ووقفت لمدة طويلة على حافة الرصيف، تميل برأسها جهة الجنوب مع من يميل، وحين جاء "الديزل" الفرداني، قالوا: الدليل الذي يأتي في المقدمة.

وعند ذاك اندفع العسكر في الحشد، وطالبوهم بالنزول على جانبي المحطة، فهاج الجمهور، وتشبثوا بمواقعهم، بيد إن قوة الدفع سحبت بدن أمي إلى أسفل، فكانت مشاهدتي منقوصة، فلم أر غير نعليه اللامعين، وسراويل بدلته السوداء التي قبضت أمي على طرفها لتقول بعلو الصوت: أشوفه زيك.. فمال بجسده الشاهق نحوي، واستطاع رغم السير البطيء للقطار أن يلمس شعري، ورفعت حينذاك رأسي

لأطالع وجهه المضيء بالفودين الأشيبين فلم أقدر على المواجهة، فصرخت من الهول، وقطع به القطار مسافة لا تجعلني أراه مرة أخرى، فنقلتني أمي إلى صدرها لتضمني بقوة، وهي تمسح دموعها، ثم سألتني: هل رأيته؟ فجددت بكائي..

لم يكن باستطاعة خيالي الطفل أن يتوقع حدوث هذا في الواقع، أن أرى ساكن السماوات الذي تشكله أحلامي يسير بيننا على الأرض. كانت معجزة فجرت حيرتها دموعي.

قلت لفؤاد: إنني لا أريد أن أراه.

– ومن سمعك.

كانت تتصارع في داخلي مشاعر متناقضة، منها ما يخصني، وما يخص الناس من حولي، كيف أجرؤ على الوقوف بين رجاله ودهمائه لمطالعة وجهه البغيض؟ إن مشاهدته في حد ذاتها خيانة للنفس.. ثم إن عين البلد لا ترحم، ولا تتقبل لحزينين مثلنا الوقوف وسط طبل وزمر، فهو في النهاية عرس، لا يليق بمن ودع أمه بالأمس.

عبرنا البوابة لنتجه إلى بيت فؤاد في الحي المقابل..

سنسمع – فيما بعد – كيف أن الرئيس لمح الحاج أبو زيد[11] واقفا بين المسئولين، فنادى عليه.

رفع الحاج ذيل جلبابه ليتمكن من الإمساك بالعمود المذهب لعربة الرئاسة، فأحس بأنه يمتطي البراق الذي يضرب بأجنحته أركان الكون الأربعة، إنه لا يصدق أن يسري به في عز النهار، الرئيس بذات نفسه ينادي عليه باسمه.

وها هو يقف بين كبار رجال الدولة. فهل رأته البلد بعينها؟ على الأقل، رآه رفاقه من مسئولي المركز، وسينقلون في الحال الواقعة.

إنه الآن يضمن ترشيحه للمجلس إلى الأبد.

وقف على جنب عاقدا يديه أسفل بطنه، ولأنه لا يدري ما يفعل بهما كان لا يكف عن ضبط طاقيته الصوف على رأسه، ولأنه لا يدري ما يفعل به الرئيس بعد مغادرته البلد، وقبل أن يصل القطار نهاية الرصيف، أمسك بيد الرئيس،

---

(11) أحد رجال ديمتري الذي اضطر أن يتنازل له عن بعض ممتلكاته حين أجبر على ترك البلاد بعد العدوان الثلاثي بشهور.

وأشار إلى العمارة[١٢] العالية التي تواجه البوابة الثانية للمحطة: تفضل فخامتك نخطف لقمة.

وابتسم له الرئيس وهو يطحن بفكه السفلى: شكرا يا حاج.

- والله يا إخوانا البيت قريب.

وتبادل كبار رجال الدولة الهمس، وربت الرئيس على كتفه ودفعه برهافة حاثا إياه على النزول.

والله هو لا يدري لماذا فعل الرئيس ذلك؟

ولكنه قال - لشلة الأنس - ربما نقل له رجاله موقفي يوم توقيع المعاهدة، ففي نفس الليلة طلب الحاج الاجتماع بشباب البلد من المتعلمين ليشرح لهم أهمية أن توقع مصر، ويعدد لهم الفوائد التي ستعود على أهل البلد، وقف على المنصة، فلم يفتح الله عليه إلا بجملة وحيدة ظل يرددها: والله

---

[١٢] ليست من أملاكه إنما تتبع تاجر كبير، وتعتبر من أعلى البنايات في البلد والدليل على ذلك أنها استخدمت في رفع صفارة الإنذار أثناء سنوات الحرب ٦٧ و٧٣.

بلدنا راح تاكل بقلاوة بعد كامب ديفيد.. والختمة الشريفة بقلاوة.

* * *

- ٥ -

إذا امتد الشارع الذي ندخله الآن على استقامته سيصل بالتأكيد إلى أول الرمل، على مسافة لا تزيد عن العشر كيلومترات ينتهي الوادي بأرضه السوداء الطينية التي كانت تشكل ملكيات الأسرة الحاكمة قبل الثورة لتبدأ الصحراء برمالها وكثبانها، أرض قاحلة، لا حياة فيها، تأخذك حتى تصل إلى سيناء، لا يقطعها غير خط المياه المحفور الذي يصل البحرين، قناة السويس.

من ها هنا جاءك البدو الرحل، وقبائل الغجر الذين حطوا رحالهم على هذه البراري المهجورة. كان هذا الأمر لا يعنيك في شيء، فأنت مكنونة في أرضك العالية، وراء أسوارك البيضاء، يقف رجالك في أبراجهم شاكي السلاح، يصدون عن أبوابك الغارات، ثم جاء من بعدهم – من نفس الطريق – رجال المناسر، فانتشروا بين البيوت المتناثرة التي

ضاقت بها أسوارك، لينقبوا الجدران، ويسلبوا الماشية وصناديق الغلال ويفرضوا الإتاوات.

وانهار السور أمام تكاثر أبنائك، ورفعت الأبواب ليبدأ الزحف إلى السهل، وبعد انقضاء الوحشة بمرور القطارات، عبرت الشريطين، لتجعل امتدادك على هذه الأرض.

كانت البداية بالمقاهي والغرز لتستقبل المسافرين أو يرتاح عليها – لبعض الوقت – الراحلون، ثم وكالات تجمع المطايا حتى يعود إليها أصحابها من أغراب بعد قضاء حوائجهم في المدن البعيدة، ثم موقف للسيارات حين تشجع أحدهم وابتاع أول سيارة تنقل أهل البلدة إلى المديرية، بعدها جاءت خطوط الأتوبيس فأقيمت المحطة غير بعيد عن الموقف وسكة القطار، وصار الشارع شارعين ثم ثلاثة ثم أربعة، واتسمت هذه المنطقة بالتقسيم الحديث، شوارع طولية وأخرى عرضية لها اتساع معقول يسمح بمرور سيارة الأجرة وسيارة النقل، هاهنا لا تعدم العين مشاهدة ملامح مدينة جديدة، لا شبه بينها وبين الأخرى القابعة على التل العالي.

وجاءك السوق..

أقيم له سور من حديد يحدد مساحته، له باب كبير على جانب منه دار للحارس وأحواض لرد عطش البهيمة وصنابير كبيرة لتروي غلة البائع والشاري، وأنشئت بداخله مباسط خشبية تؤجر للتاجر، وجملون مرتفع ليظلل على الصاغة.

وقسم السوق إلى مواقع حيث يجتمع تجار الصنف الواحد في مكان بعينه، هنا السماكون، وإلى جوارهم باعة الخضار والفاكهة، وعلى مقربة منهم تجار الأقمشة والملابس الجاهزة ويتناثر فيما بينهم السمكرية وبائعو الفول والطعمية، أو يصخب في زحامهم رجال يرفعون الدوارق الكبيرة على بطونهم ويضربون بأيديهم على صاجات تنبه الناس للشربات الملون والعصائر.

وجاءك الخلق من كل صوب..

فضج المكان بحركة البيع والشراء، واعتاد أهل القرى المجاورة النزول إلى البلد لابتياع لوازمهم، كما اعتاد تجار المدن القريبة رفع بضائعهم على عربات الكارو ليروجوا لها بين المترددين على السوق.

وظهرت بيوت على جانبي السوق..

انقضى – إذن – زمن وحشتك، وعزلتك.

الآن يأتي إليك الناس بالقطارات والسيارات، يترددون على سوقك، بعد أن كنت لا ترى الغرباء سوى مرة واحدة في العام، عند إقامة المولد السنوي لصاحبة المقام، الوحيدة التي مجدت بين أوليائك.

بعد قيام الثورة. بنيت في مداخلك المنشآت الجديدة، في المدخل الجنوبي أسست الوحدة البيطرية والساحة الشعبية وبيت رئيس المدينة وشونة الغلال والمحكمة والمدرسة الثانوية، وفي المدخل الشمالي منشآت أخرى، هندسة الري، والمعهد الديني للفتيات وبنك مصر والمساكن الشعبية ومبنى مجلس المدينة، ونصِّف طريق الأسفلت، فقامت في الوسط أعمدة النور، وعلى الجانبين أشجار لها زهر أحمر وثمار صغيرة تشبه البطيخ – تفتقت عن أقفاص الجريد لتزدهي بخضرتها، وأقيم السور من الدبش الأبيض ليحفظ للقطار طريقه، وأمام السور تعددت المحلات لكتبة المحكمة والمحامين وورش إصلاح السيارات.

كان للأب نصيب من أرضك هذه..

أدخل الآن الجزء المتبقي منها، بيت فؤاد.

قبل الثورة بسنوات قليلة دخل مزاد الأرض التي تؤول لحليم باشا، في هذه الحقبة كان الأب قد أفلح في إقامة العلاقات مع التفتيش الأميري وعرف وسائل التقرب من موظفيه، فأرسل الهدايا الثمينة، وذبح الذبائح، وأولم الولائم، واعتاد أهل الحي على "كاريتة" المفتش يركنها أمام "الفراندة" وينزل هو وأتباعه ليجتمعوا على عشاء من أطايب الطعام، المشوي والمسلوق والمطبوخ، من لحوم الضأن والدجاج والبط والرومي، بعدها تمتد جلسة الحشيش حتى الساعات الأولى من النهار على شدو أم كلثوم في حفلها الشهري ينطلق من مذياع له ضوء يشع على واجهته، ويستمد طاقته من أسلاك متصلة ببطارية مشحونة من "دينامو" الطاحونة.

هكذا هجر الأب الدار القريبة من الطاحونة.

بعد أن وجه عنايته زمنا لامتلاك الأرض، ليعود إليها في شيخوخته فيقضي بين جدرانها العالية أيامه الأخيرة، ويكون قد ترك هذا البيت لولده، بعد أن اضطر إلى بيع مساحات واسعة من أحواشه ليسد بها الأزمات الطارئة.

عاد إلى بيت الطاحونة مرة أخرى بعد أن ولى زمن الأرض الواسعة التي كانت تغدق عليه المحصول الوفير

تفيض به الصناديق وأسطح الدار وأرض الحوش، وفي أوقات التحاريق يجرف الأرض فيخرج منها الطمي يجلبه إلى أحواش الدار ليقيم معجنة مهولة تلوك فيها الخيل بسيقانها يوما بكامله، ثم يأتي العمال فيضربون هذا الطين قوالب، تصف في المساحات الفارغة معرضة للشمس اللاهبة، ثم يأمر بإقامة القمينة التي يصف فيها الطوب، وتضرم نارها الحامية ليخرج في النهاية طوبا أحمر يوزعه الأب مجانا، مرة لإقامة مسجد للحي، ومرة لإقامة جمعية لتحفيظ القرآن، وأخرى يهبها مجاملة لحضرة معاون المركز الذي يشرف على تأسيس النادي الرياضي، ولم يحفل أبدا بأن ينشئ لنفسه بيتا من الحجر، ظل عاشقا لبيوت الطين، واكتفى باستخدام القالب الأحمر لمداود الماشية وعتبات الدور وللجدار الخاص بحنفية المياه.

استمر على هذا المنوال مواسم عدة، ثم فاجأته الثورة، فأممت أرض الباشا، ووزعت على الفلاحين الذين كانوا يعملون لديه، أما هو فلم يطبق عليه قانون الإصلاح، حرم من ملكية الأرض التي كان يزرعها، وكانت حجة اللجنة أنه يمتلك الطواحين، ولا تنطبق عليه صفة الفلاح كما حددها

رجال الثورة، سعى إلى كل الجهات غير أن الأبواب ظلت مغلقة في وجهه، واستمر عداؤه للعمدة وأعضاء اللجنة قائما فيهم وفي ذريتهم حتى رحيله.

ها هو يسمع حديث الناس عن السيدة إيزابيل اليهودية التي تبيع أرضها برخص التراب، قبل أن يلحقها قانون تحديد الملكية، فعاجل بجمع ما تراكم لديه من مال، ودفع المبلغ المطلوب ليحوز مساحة معقولة من الأرض.

وتبدل رفضه الشديد للثورة إلى تأييد حاسم "لولاها ما صرت مالكا" و"فدان واحد ملك أبرك من خمسين فدانا إيجارا" هكذا كان يقنع نفسه، أو يلخص في جملته عصارة حكمته للآخرين.

* * *

- ٦ -

ودعت فؤاد بعد أذان المغرب، خرجت من بيته مكتظا بطعامه، وكان قد تجرأ على الحديث حول مستقبل الأرض والطاحونة والبيت، وقال إنني لا أملك الوقت الكافي لمتابعة مثل هذه الأمور، وطالبني بالذهاب معه صباح الغد إلى الشهر العقاري لأوقع له توكيلا خاصا، يمكنه من تصريف

هذه الشئون بدلا من اللجوء إلى استدعائي في كل صغيرة وكبيرة، أو نتوكل على الله ونبدأ التقسيم في الحال.

وتركني للاختيار..

قلت له: ربنا يسهل.. إنك فاجأتني، والموضوع بحاجة إلى وقت طويل.

فقال: الأعمار بيد الله، وهذه سنة الحياة.. وخير البر عاجله.

لا يعلم أنني أنفر من مثل هذا التفكير العملي، فهو باتر وقاطع، لا يدع فرصة للعاطفة، ولا للتأمل في مصائرنا، في زمن الأب لم يكن ليجرؤ على طلب استقلاليته، صحيح أن الأمور ستنتهي بأن يحوز كل واحد منا نصيبه، ولكنني بحاجة لوقت طويل حتى أشعر برحيل الأبوين، كما أنني أخشى أن يتركني وحيدا حين يستقل بميراثه، وأنا لا خبرة لي بإدارة ما سيؤول إليَّ.

تركت الأمر معلقا بيننا على وعد أن يتم ذلك بعد طلعة العيد الكبير.

أضيئت أنوار الشارع الكبير ومصابيح المحلات والمقاهي المنتشرة على رصيفه، واختلطت أصوات

الراديوهات تذيع برامج أول الليل، ألقيت نظرة باتجاه المحطة فوجدت الزينات قد رفعت عن الأعمدة، وسقطت الأوراق الملونة عن البنايات وتدلت من سطح "البلوك" إلى الأرض دون أن يهتم أحد برفعها، قلت: إنني لا أستطيع العودة إلى البيت في هذا الوقت.. لا مانع من جولة خارج البيوت.

مررت على مقهى الحاج محي، كان حضور الفواعلية وعمال البناء كثيفا كالعادة، تزدحم الكراسي الموزعة على الرصيف بالجلابيب والعمائم، نفس المقهى الذي كنت أسعى إليه، فأجد أبي بين أصدقائه يلتفون كل صباح ليدخنوا كرسي المعسل، ويطالعوا الجريدة اليومية، ويعلقوا على الأحداث بطريقتهم الخاصة، كانت سحنهم الوقور تضيء بنور العمائم المزهرة، وتستدفئ أجسادهم بعباءات الجوخ السوداء. اليوم تبدل الحال، رحل هؤلاء مع زمانهم ليقتعد الفواعلية مقاعدهم بانتظار المقاول الذي يقبض لهم الأجر ويوزعهم على مواقع العمل.

كم مرة اتخذت مكانك في صفوف الاستعراض؟

في كل مناسبة وطنية ينتقي المدرسون التلاميذ الذين يتصفون بالنظافة وحسن الهندام، ليرفعوا أعلام المدرسة واللافتات التي تحمل جملا من خطب الرئيس. نسير بخطوات منتظمة تدق نعالنا الصغيرة على أرض الأسفلت على إيقاعات فرقة المدرسة الموسيقية لتخرج الأمهات وناس البلد إلى النواصي يطالعون وجوهنا الصارمة وخطوات أقدامنا الثابتة، فتنفلت منهم مشاعرهم وتطلق الزغاريد، فرحة بنا، لا بأعياد الوطن.

ما زال بناء جمعية تحفيظ القرآن على حاله، هذا هو الحجر الكبير، كنا نجتمع فوقه تاركين أبداننا المبرودة لشعاع الشمس، يأتينا صفير قطار الدلتا من وراء الأسوار، اليوم فتحوا طريقا يعبر إلى الجهة الأخرى، بعد أن رفع شريط "سوارس"، وبسط مكانه طريق مسفلت عريض.

أين راحت رائحة الريحان؟

لا شيء يطل من أسوار هندسة الري، بعد أن أهملت حديقتها الجميلة، أعيد بناؤها من جديد، أزالوا البناء الذي أنشئ على الطراز الأجنبي، سقف من قرميد أحمر ينزل هابطا على الجانبين، وأعمدة وأسوار تطل على الحديقة،

ومدخل مفروش بالحصباء الملونة، يصل إلى مطلع الباب الكبير المكون من هيكل حديدي عشقت زخرفاته النباتية بقطع من الزجاج الملون.

كانت الهندسة هي المكان الوحيد الذي يضاء بالكهرباء قبل أن يمدوا الأسلاك بين أعمدة الشوارع، كنا نسمع تكتكات ماكينة الكهرباء داخل الغرفة المستقلة، ونلعب تحت أنوار المصابيح التي تشبه القبعات البيضاء. توارت رائحة الريحان..

وأهملت الحديقة بعد أن برز البناء الجديد الخالي من الأعمدة والزخارف، لا شيء غير مربعات النوافذ، ومسطحات طويلة في خطوط متوازية، لا تلمس القلب أبدا.

هل كان جدك هو رجل الصنبور أم تراه شبحا لشخص يشبهه؟

الذاكرة الآن في حالة اختبار، إن لم يكن جدك فلم أتيت يوما إلى هذا المكان؟ ولم دنوت نحو هذا الرجل الذي أمسك بيدك الصغيرة وقال: افتح للنسوة. فضغط على المفتاح ليندفق الماء في حلوق الجرار. ماء غزير يضيع نصفه على هدوم البنات اللائي يتحركن فوق الحجارة المغروسة في البركة.

ما يؤكد أنه جدك قول أمك أن الأرض المجاورة للجمعية كانت ملكا لنا، باع جدك نصيبه منها للغريب الذي أقام عليها محطة للبنزين.

ولكنك رأيت يومًا هذه الحظيرة المهجورة.

ظلت زمناً وحيدة لم يهدمها الغريب، أبقاها خارج أسواره. وفي طريق المدرسة كنت تقف وقتا طويلا لتتأمل هذا البيت الصغير المشيد على سطحها.

كم بهرك هذا البيت المكون من طابقين، وكم حلمت بالدخول إليه فتجول بين ردهاته، وقصصت على أمك حكاية البيت وأذهلتك حين قالت: إنه ذلك البيت الذي بنيته بيدي وأنا طفلة.

وقالت: في عصرية صيفية رائعة تسلقت الجدار أنا وصديقة لي، عجنا الطين في إناء من فخار، وأحضرنا الحجارة المهملة بين عيدان الحطب لنقيم البيت الذي وقعت في غرامه، احتفظ بوجوده لأن أحدا لا يجرؤ على الصعود إليه، ولن يسقط حتى تهدم الحظيرة بكاملها.

هذا هو نفس الطريق إلى أرضنا البعيدة، في هذا المكان بالتحديد سقطت تحت الجميزة العجوز. كنت عائدا من الغيط

ممتطيا الحمارة الحرون، وضعت قدميك في خصم الغبيط، ورفعت العصا فوق رأسها لترمح بك، ولكنها الملعونة أسقطتك على الأرض فيصدم رأسك بجذع الجميزة، رفعك الناس من تحت إبطك ليذهبوا بك إلى المستشفى القريب[١٣].

ستنحرف لتعبر المزلقان الأخير، لا طاقة لك في المرور من أمام المشرحة، في كتلة الظلام المحيطة بها تعشش عفاريت الموتى، وتحت أسوارها تلهو أرواح مجنونة تقطع الطريق وتبخ ألسنة النار في وجوه المارة.

سكون المكان هيأ للراحلين القيام، من ماء الترعة يصعد الغرقى، ومن بين القضبان وقطع الزلط تتجمع أشلاء القتلى الذين داستهم العجلات الحديدية.

تعود الآن مهرولا. لا قدرة لك على النظر إلى الخلف لتتأكد من تلك الوجوه التي تفح بأنفاسها من حولك.

---

(١٣) أمرت بتأسيسه الملكة فريدة، على رأس الألفي فدان التي سجلها فاروق باسمها كهدية عرس، وبدل اسم القرية التي يقع بها التفتيش الملكي ليحمل اسم الزوجة الأولى لملك البلاد.

- ٧ -

لم ألحظ شيخوخة هذه الدار من قبل، رأيت ذلك وكأنما حدث في يوم وليلة، لم أنتبه لكوني أهبط إليها الآن قدر عتبتين بعد أن كنت أصعد إلى بابها درجتين، ولم يلفت نظري هاتان النافذتان المنخفضتان اللتان تسمحان للمارين في الشارع بالنظر منهما، كانتا يوما مرتفعتين فوق قامة الرجل، وكنا بالداخل لا نرى سوى رأس أحدهم حين يكون على ظهر الجمل.

تلك الشروخ في الجدران متى تفتقت؟ ومتى مالت الحوائط كل هذا الميل؟ وفي أي حين تساقطت الدهاكة، وتقشر اللون، فانهال في رقائق خفيفة تحت الجدار؟

أمرق إلى الردهة الصغيرة، فتواجهني الستارة التي تحجز الداخل عن غرفة الضيوف، وينقطع التيار الكهربائي فجأة. هل أعود القهقهرى إلى الخارج؟

أنا متعب إلى أقصى حد، وبدني بحاجة إلى الراحة والنوم العميق، لابد من البحث عن مصباح الجاز، ها هي ذي القداحة في جيبي، أوقد شعلتها، وأسير على هدى نورها المحدود.

تتحرك ثنايا الستارة حركات خفيفة، أيمكن أن تخفي أحدا ورائها؟ أم أنها نسمة الهواء المقبلة من فتحة السلم الداخلي؟ أعيد السيطرة على نفسي، وأمتلك الشجاعة الكافية لرفعها إلى أعلى، لا أحد هناك، لا تخضع إذن لأوهامك، هل جاء الوقت الذي تخاف فيه من بيتك؟

أنت تحفظ أركانه، وتألف أشياءه، وهي تألفك، لا يمكن بحال أن تصاب بأذى هنا، في مكان الألفة والحنين.

هذا هو المصباح معلق على حائط المطبخ، أشعل فتيلة فتسطع بقعة النور، وتزداد دائرتها اتساعا، أضعه الآن على الطاولة الكبيرة لأتمكن من تبديل ملابسي، وارتداء منامتي.

من أين يأتيني هذا الهمس الخفيض؟ ومن الذي أشعل النور المتسرب من حجرة الأب، إنني أتقدم لأنظر بين الضلفتين فأراه هناك عاريا في الطشت، يجلس على كرسي خشبي، وأمي وراءه تنقل الماء وتزيل عن الجسد رغاوي الصابون، ويتصلان في حديث لا تلتقطه الأذن وإن بدا حوارا حميما يرسم البسمة على وجهيهما، بسمة الرضى والصفاء، تماما كما كانا في زمانهما الأول.

عدت إلى حجرتي ممسكا المصباح بين يدي، وضعته على المنضدة أمامي، وتمددت بجسمي على السرير، ظلت عيناي مفتوحتين في فراغ الغرفة تتأملان الكتب المصفوفة على الرف، وتنتقلان عبر الكائنات الخرافية التي يشكلها الظل والنور بين أعمدة السقف الخشبية، وعلى قشور الحوائط، كائنات كثيرة تتشكل وتتبدل وتختفي، تصرخ أفواهها دون أن يخرج منها صوت، لا مفر من الرحيل.

واستسلمت للغفوة، وكدت أسحب بدني تحت الغطاء في اللحظة التي رأيتها وهي تفتح الباب، جلست على الأرض تمشط شعرها المبلول، وجعلته ضفيرتين كبيرتين تنزلان على صدرها، ومسحت بطرف منديلها سائل الكحل الأسود حول عينيها، بعدها، قامت متجهة نحو السرير بجلبابها الخفيف الذي يبدي تكورات الجسد الممتلئ، صعدت إلى الفراش وتمددت إلى جواري في صمت. بعد حين رفعت ذراعها وضمتني إليها دون أن أشعر بالضمة، كنت في حالة لا يسمح بالتفريق بين الكائنات الخرافية التي ازدحمت بها غرفتي وبين وجودي المجسم، استحلت إلى كائن طيفي يحوم في هواء الحجرة، ويبدل موقعه على الجدران.

(ورأيتني أسير في طريق ضيق على جانبيه نخيل، كنا كمن يغور في لوحة زيتية، والغبش أصبح أكثر قتامة، وقفنا عند منتهى ترعة راكد ماؤها، على رأسها سور منخفض ابتناه فلاح بطين وتبن، وفرشه بقش منفوش، وجديد، قدحتا عينان لوغد أعرفه، وأكرهه.

فكرت: بين الأسوار مكان ملموم.

سحبتها والنشوة تمشي في عظامي ومتجمعة عند الأنف، خفت أن أعطس حتى لا أفقدها، كنت أشعر بالفحولة، فرحت لما ذهبت هي أمامي وغطست بين القش عارية مشتهاة رغم الثياب المهلهلة والقش الذي يحويها، أردت أن أفرغ فيها ذكورتي، كنت سعيدا لما نظرت في عينيها ورأيت الرغبة في احتضاني، وارتميت منهدا إلى جوارها قلت: منذ متى وأنت تذهبين إليهم؟

احتوت بكفيها أذني المتقدتين، قلت: أحبك.

رسمت على أن أضع شفتينا في تطابق، ونجحت، لما لملمت شعرها إلى الوراء، قالت: يا حبيبي.

لما ضغطت بيدي على نهديها الدافئين تنهدت.

وتقلبنا في طقطقات القش، كنت محرجا حين مددت يدي إلى السراويل أخلعه وظهرت خلفيتي، كانت جريئة، ومشجعة، حين تصالح عرقنا رأيت رأس الوغد التي برزت من الطاقة، انسحبت كل الذكورة لما نظرت – هي – إليه بتوسل، لم أتمالك، قطعت ثوبها، انفلت منه النهدان، لطمتها، تشعث شعرها، وقفت وبرجلي أرسلت الضربات القوية، جاء لينقذها، واصلت الضرب، أردت ألا تقع نظراته على شيء من جسمها، كنت أحميها منه وأضربها، وفي عينيها عتاب، وحين تقدم تهت عن نفسي في توجيه اللكمات إليه حتى سقط.

انسحبت لتذهب، شددت شعرها، صرخت، سالت دموعها، أحبها أكثر حين تبكي، ألقي رأسها على كتفي وأقبلها ارتعشت شفتاها: ألا تصدق.. أنا أحبك.

وامتزج بنشيجها صراخ، التفت حولي، كان صراخ طفل لما تمليته عرفت ملامحه.

قالت لي ذات مساء: أريد أن يكون لي طفل من دمك).

مدينة نصر – ١٩٩٦